

منصور الحلاج

مأساة فى خمسة فصول



المشروع القومى للترجمة

85

للشاعر التركى : صالح زكى أقطاى

ترجمة ودراسة : د. عبدالرازق بركات

مراجعة : د. الصفصافى أحمد مرسى

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

منصور الحلاج

مأساة فى خمسة فصول

للشاعر التركى

صالح زكى أقطـاى

ترجمة ودراسة

د . عبد الرازق بركات



الشخصيات

منصور الحلاج : درويش ، جده مجوسى .

جلفدان : سيدة على صلة بالجن ، زوج للشيخ خليل ، وأم لطفل يدعى قدوس .

المقتدر : خليفة بغداد .

حامد العباس : الوزير .

نصر : الحاجب .

أبو عمر : قاضى بغداد .

الجنيد
الشبلى } درويشا بغداد

وزراء - أمراء - شيوخ - سيدات - جنود - حراس - سجانون - جن وملائكة .

تدور الأحداث أولا فى موضع يسمى البيضاء بتبريز ثم فى بغداد .

الفصل الأول

المشهد الأول

« فى موضع يقال له البيضاء بتبريز ، وفى وقت السحر ... وفى حديقة نصفها يزدان بالورد والزهور ، والأشجار الملتفة ، يجلس منصور فوق سجادة فى السابعة والعشرين من عمره ، يبدو شاحب الوجه ، رقيقًا ، نحيلا ، عميق النظرات ، ومعه جلفدان فى نفس العمر تقريباً ، ساحرة لها سلطان على القلوب ... يجلسان أمام عين ماء » .

منصور : جلفدان !

ها هى ذى الحياة وردية اللون ،

بريق الزنابق فى المياه ، والخيوط الرفيعة ، والتبر والنضار والنار المضطرمة . . . كل شىء يتعبد وراء ستار .

وفى السماء سر يضطرم ، والجبال وردية ألوانها ، أخذتها من الورود الحمر فى خمائلها وأغصانها .

جلفدان : أهو العشق ، أم سر يتلظى ، أم الشوق فتش قليلا عنه ؛ لأنى أخاف التفكير فى سكون الأفق .

منصور : خائفة . . فزعة . . والخاتمة بلون الدم !

جلفدان : أزح الستار عن سرك ، واقرأ أسطورتك التى بداخلك لتجعل ذلك العالم السكران ينتفض من حبك .

منصور : تأملى أيتها السيدة السابحة فى الخيال !

ذلك الرمز الغامض فى اللوحة ، والنقش الموجود فى الصورة . .

جلفدان : اكشف الرمز شيئا فشيئا

واحفظ البرعم بالوجد من الذبول

« يبدأ منصور فى الترنم بصوت خافت حالم هادىء مناجيا الله »

مناجاة : فى تلكم الأرض ، والأغصان الرطاب

وفى ماء النهر ذى العباب

وفى الطرق الطويلة ، والشعاب

تظهر قدرة الله دون حجاب

أشجار البلوط ، وقباب السماء

والثمار التى تميل بأغصانها فوق الغبراء

والأرض المنتشية مع الفجر بالأنداء

تشرح السر فى جلاء

فى الذرة عالم لى

وفى الغيب سلطان لى

وفى شفق السحر ، ونحل الأصيل

فرحة للورد ولى

جلفدان : ما فهمت شيئا من كلامك ؟!

منصور : ردديه .. تفهميه !

جلفدان : أشدو هو ، أم زفرة ، أم دعاء ؟

أم هوس يتجدد مع أول أغاريد الطيور ؟

منصور : فى لون الشفق ، وفى تناسق الأغصان

وفى الزنابق الحمر وهى تتهاوى فوق الربى

وفى الطيور حين تنكمش وتنتفض فى الرياض الندية

يشعر المرء أن الحياة لحن منسجم النغمات

فأنصتى لصوتها المنبعث فى خفوت وغموض

ومن لا يبصر لا يدرك شيئاً من لحنها

اللحن الأول : قسما بتراب مكة ، وبإثمد المدينة .

قسما بأذان بلال الخاشع

قسما بالريح العطرة التى تهب من أرجاء الحجاز

إنه لزنبقة فى كمها ، وندى يسَّاقط متلألئاً كالفضة . . .

اللحن الثانى : أنفاس القدرة الحية من عهد آدم

هى أسطورة غامضة منذ الأزل

هى لحن ، هى روح ، هى أزل ، أضرم فى الأرض اللهيب

هى فراشة المصباح ، وآخر كوثر الفراشة .

اللحن الثالث : فاكهة الهند الكثيرة

يغمر الندى أغصانها

وريح عاصف تهب

فيها هلاك كشمير

اللحن الرابع :

ساحرة هى الحياة فى المياة الجارية

والتوابل والزنجبيل والزورق

ورياض بغداد ، وقرنفل بابل

كلها عطشى فى الربى لكوثر الشرح

جلفدان : كان فى قلبى ظل أسود لا أستطيع التحكم فيه

يغشى عينى ، ويصيب رأسى بالدوار

لا يقر فى مكان ، ولا يشغله عنى شىء

ولا يرضى بهذه الدنيا الفانية

ثم اعترتنى حال ، كحال الفراشة المحترقة

حتى شققت أنت بروحك الشافى هذا القلب

فصرت أنهض مع الفجر أتأمل دنيا الأبد

وطردت الشبح الحالك من حياتى

لكأن روحى الآن تحلق من المساء حتى السحر

وكأن نهر قلبى اجتاح سدوده . .

منصور : إنا نرقى بهذه القدم سبعًا طباقًا

وهناك حريق آخر من الحيرة يضرم هذا السر !

« جلفدان تتوقف حـائرة برهة ، ترمق الأفق الغائم البعيـد بعينيهـا ، ثم تقول » ،

جلفدان : هنالك أشباح تحلق من بعيد

وأرواح تتواعد فى النهر

وأسمع فى الشفق موسيقى الوجود

الزرقة ، والأضواء ، والمـاء

أرى طريق الخلود فى السماء

« فى تلك الأثـناء يرفع منصـور يـده من المـاء المتـدفـق من العين ، ويغترف غرفة منه يشربها ، ثم يدخل اثنان من الحراس أنيقين فى بِزَّتيهما ، فيقبضان عليهما ، ويدفعانهما » .

المشهد الثانى

« بجوار مدرسة كبيرة بالبيـضاء ، وفى ثلاث حجرات متداخلة يصعد الناس إليـها بسلم ، أمـامه لوح خـشبى يرتكز على ثـلاثة أقدام الحـجرة الصغيرة لإعداد القهوة ، والكبيرة دار للفتوى ، والمتوسطة للانتظار .

يجلس هناك خليل زوج جلفدان ومعه جماعة من المدرسين . وتدخل جلفدان مع منصور مقبوضا عليـهما . . الوقت بعد صلاة الفجر بقليل . . يستبقونها فى حجرة الانتظار مخفورة بالحرس » .

المفتى مصيب أفندى

« يطرق برهة ، ثم يرفع رأسه مخاطباً منصوراً »

أنبأنا رجل قبل الفجر

أنك كنت تتريض مع جلفدان

وأنك تعتقد صدق هذيانك

وتتوهم أنك تدعو إلى الله بكلامك . .

ألست شيعياً ولك أتباع ؟ . .

وتزعم أنك لا تبالى بعاقبة أمرك ! . .

وأن الإرادة الكلية . . والإرادة الجزئية

وأساس العقيدة ، هو الحكمة الأولى !

منصور : قرأت فى كلام الجنيد أن كل هذا أمور ظاهرية . .

أنا متعلق بالنور الأول بعينى وقلبى وروحى

ولا أعرف لى ذنبا كسبته ، إلا أننى حلقت فى الملكوت . .

أنا العاشق الأكبر لرب الخلود

كتابى لا يعرف الصغائر ولا الكبائر

لا يعرف إلا أصوات الحق التى تجلجل فى ربابى

أنا قدرة الخالق . . أنا السر المخلوق

وبقلبى من تجلياته سر يصان

معنى الوجود ومفهومه من لدنه

أنا شمعة « ما وراء » و « ماسوى » و « ماعكس »

أنا الكعبة ، أنا قبلة النور التى لا تخمد نارها

حكمه تعالى برهة تمتد من الأزل حتى الأبد

هو جمال الكمال ، وكمال الجمال

أنت لا يدرك قلبك هذه الحال الخفية

كل جزء خرج من الكل ، ويعود إليه

حينئذ يخمد اللهيب شيئا فشيئا . .

المفتى مصيب أفندى : بحسبك هذا !

كلامك يناقض الشرع فى الحقيقة !

وحذار أن تشركنا معك فى هذا الذنب !

ولا تتجاوز حدود الأدب !

منصور : أنا شربت النهر شربة واحدة مع الشبلى

فسكرت بماء الكوثر واللدن

وأعرف أن كلامى لا يوافق شيئا مسطوراً فى الشرع

ولتعلم أن هناك حقيقة فوق ما سطر . .

المفتى : ياحاجب ! هات البيضاوى والبجوى والتبيان ! .

منصور : دعك من الفقهاء ولا تزعجهم فى رقدتهم

واجمع ما شئت من السطور والصحائف

فالتأويل لا يبلغ الهدف بالتغيير .

المفتى : هل بلغت السيدة هذه الحال أيضا ؟ !

أم ماهى عقيدتها ؟ . . .

فلنسأل ونستوضح . . .

ثم نفسر النص ونشرح . . .

« تدخل السيدة فى صورة تخفى ملامحها وهيئتها ، كما فى الشرع ، غير أنهم أمروها أن تبين عن وجهها . . . فلما نهضت وكشفت عنه شع من عينيها بريق كبريق ثمار اللوز الناضجة ، وبدت عن وجه ساحر يصرف العابد عن عبادته . . . ثم دخلت فى رقة وأنفة ، ووضعت نقابها على النافذة . . . ففاح منها عبير فتن الحضور . . . فسألها المفتى فى صوت خفيض » .

المفتى مصيب أفندى : لما رأيناك نبذت حدود الشرع

والعرف والأمر بالمعروف وراءك ظهريا

كان نصحك علينا أمراً مقضياً .

جلفدان « فى حدة » : ماذا . . . ماذا قلت ؟

أترمينى بالمروق ؟ . . . أنا ؟!

من أبلغك هذا أحمق أخرق . . .

غافل ، آثم ، كل من عد هذا ذنبا

المفتى : فهيا أوقفينا على حالك

واشرحى أمرك فى مقالك . . .

جلفدان : أنا لا أعرف حقيقة أمرى ، أهو رؤيا أم حقيقة ؟

متى رأيت ؟ وأين ؟ وكيف صارت هذه حالى ؟!

لقد تغيرت حياتى فجأة ،

امَّحت الألوان أمام عينى يوما بعد يوم

واعترانى شعور غامض لا أدرى كنهه .

وكأنما حلت بقلبى طاقة نور من السماء

عشت هذا الشعور كل لحظة وكل نفس

احترقت به حينا ، وضقت به حينا ، وخشيته حينا آخر

أخذنى من نفسى وأطلقنى فى مهب ريح عاصف

شربت السر من جرة مجهولة ، واغتسلت منها

لست أدرى أهى الحمى ، أم الجنون . . . أم السكر ؟!

لقد كتبت الريح نهايتى المجهولة على الأوراق

خرجت ذات ليلة أضرب فى الشعاب ، وما راعنى السكون

فتلاشى الدخان الأسود من قلبى شيئا فشيئا

وتعشَّقتُ ظلالا لست أدرى من أين أتت ؟!

فإذا بقناديل كثيرة تسطع ، وإذا بالطرق كثيرة

لابد من الاحتراق التام . . . لابد من فناء العبد

هذا كلام يفهمه العارفون . . . العارفون

هبطت الأرض مع أشعة الشمس

وهطلت مع الندى فوق البراعم الحمراء

وحلقت مع الطيور فى جو السماء

صرت سراً ، بينما الأغصان تستعر نارا

المفتى : لم تنكرى ، ولم تتأولى ، فأفشيتِ السر

واعترفتِ جهارا ، وكشفتِ الستر . .

أنت آثمة ، واتبعت الهوى ،

وأبحت نفسك للعذاب والضنى

شريكة أنت لهذا المجذوب ،

واتبعته فيما اقترف من الذنوب

أطعت النفس فى رغائبها ،

فتاهت نفسك ، وضل مرشدها ،

أى سند لكلامك مع العرف والشرع والقرآن ؟!

أم بهذا حدثنا المصطفى العدنان ؟!

ويلك كم أنت فى خسران مبين . .

لك فى الدنيا خزى ، وفى الآخرة عذاب مهين . .

ما أحر النار التى ستتقلبين فيها !،

وما أبعدك عن رحمة ترجينها !

« تبلغ الثورة بمصيب أفندى مبلغها ، وبينا ينصت الحاضرون متحفزين ، يجتذب الحرس السيدة ، ويدفعون منصوراً أمام المفتى يتكلم منصور فى هدوء ويقين . .

منصور : أنت !

لاحظٌ لك من الهدى ،

ولعل حياتك سراب وخداع

وتقضى أيامك فى ألم وصراع

الكلمة ،

النغمة ، السر ، السلام

أشياء لا يدركها من يعيشون حياتك . .

مواجيد المعرفة ، وأنوار المراد ، أنفاس تحترق

إنها الصوت الأول . . هبط الأرض طبقاً بعد طبق

العشق شيء مقدس عظيم

لا يحيط به عنصر من طين

وتلك هى المشكلة . . تلك هى المشكلة . .

حقائق الأشياء عنكم محجوبة ، ونحن نطَّلعُ عليها بألبابنا . .

أنتم لا تعرفون الحبيب والجمال والإيمان ،

ولا تعرفون الشوق والوجد والوجدان . .

أنتم أسرى المجون والفراغ واللهو ،

بل أنتم على الأرض ركام من اللحم . .

فضيلتكم هى الذلة ، وميزتكم هى الغلظة . .

أين أنتم من عفة النفس وسموها ؟!

أرواحكم تركتكم وتلاشت فى الريح . .

وتخشى فى الظلام صوتا يصيح . .

أنتم ظلام ، وذلة ، ولعنة . .

أنتم رياء ، وطمع ، ولوثة . .

« أغضب كلام منصور المفتى والمدرسين وأحنقهم ، لقد طعنهم بكلامه وأذهب هيبتهم . . لذلك انصرفوا قبل أن يتمه . . أُخذ منصور إلى الحجرة المجاورة . . وأُرسلت جلفدان مع زوجها إلى البيت » .

المشهد الثالث

« خليــل وجلفدان ، وطفل لهما فى الخامسة يدعى قدوس . . فى منزل خليل ، الكائن فى ضاحية متطرفة من المدينة ، أمــامه حديقة صغيرة ، وخلفه مــرعى ، وعلى مقــربة منه موضع خــرب تتراكم فيــه القمــامة . . الوقت بعد منتصف الليل . . ينبعث من بعيد نباح كلب ، وصياح ديك ، وبين الفينة والأخرى يصدح طائر ليلى ، وتلمع عينا قطة سوداء قابعة فوق جدار ، ثم تســترسل فى المواء . . خليل فى الحجرة المجــاورة ، وجلفدان ترتب أشياء فى الصوان ، بينا تهدهد طفلها بكلام رقيق ، فتشدو له بأغنية عفوية بصوت ملائكى . . هى أغنية من أغــانى تبريز القديمة تترنم بها وهى تنظر إلى وجه ابنها » :

ستار النافذة أسود

فكيف يقر جنبى فى مكان أسود ؟!

تجهمت لى الدنيا فى صدر شبابى

فكيف يقر جنبى فى مكان أسود ؟

أنت جلبت لى الشقاء

فكيف يقر جنبى فى مكان أسود

الجبال الثلجية يلف قنانها الدخان

والدنيا نائمة لا تفيق ،

أمامى سجن ، وورائى سجن

هكذا قَدر لى القادر

فكيف يقر جنبى فى مكان أسود ؟

أنت جلبت لى الشقاء

يتصاعد الدخان فى الرياض

وفى رأسى بومة تنعق

رحماك فالموت أهون لى . .

رحماك يا ربى . . رحماك . .

فكيف يقر جنبى فى مكان أسود ؟!

إننى أنا الستار الأسود !

«يدخل خليل الحجرة ، بعد أن سمع صوت زوجه ، وبكاء طفله . . وينظر إلى جلفدان فى حسرة . . ويقول فى حزن» :

خليل : كان الدخان يشق عنان السماء

وبلابل السحر تغرد فى روضتى

فحطمت الريح العاصف عشى

وإذا بنصيبى شقاء وحرمان

هذا جبينى قد لُطّخ بالوحل

وتلك أفعى سوداء تطبق على عنقى

فذوت زهراتى ، وخاب أملى

وتلك يدى تمسك بالغصن . . فأين الوردة ؟!

سهام المهانة تستقر فى قلبى . .

وتفشى الطاعون من جبال مجهولة . .

فهذا قدرى بخلاف قدرك

أنت أضرمت النار بقلبى أنا ، لا بقلب غيرى

أنت حطمت هذا العش الدافئ . . دمرته .

لأنك أدخلت فيه « ذئبا »

قلبى يَصْلىَ سعيراً ، وآهتى ممدودة لا تنقطع

نعقت البومة فى ليلة مشئومة

فتهاوت الجبال على عاتقى . ،

ها هما عيناى أصابهما الجحوظ . . فكدت لا أرى

وأنت قريرة العين ، لا يهمك ما جرى . .

فما ذنبى يا ترى ؟ ومن يرق لحالى ؟!

ما كان أجدرك أن ترثى لهوانى ! . .

أى وباء هذا ؟ . . أى ضنى . . أى سحر أرى ! . .

أما من طبيب لهذا الداء بين الورى ؟!

حدثينى . . حنانيك ! مزقى الأستار

جلفدان : هذا سر فوق طاقة البشر . .

«ثم تصمت إعياء دون أن تشرح شيئا ، وتستمر مترنمة بأغنيتها»

. . . .

. . . .

كيف يقر جنبى فى مكان أسود ؟ !

إنى أنا الستار الأسود . .

خليل «فى حدة وثورة» : ما أوحش هذه الحياة الكئيبة الداكنة . .

واللعنة على الوجود والخلق والجمادات الساكنة . .

« ثم يتجه مسرعا نحو زوجه ، ويقرب وجهه من وجهها »

خليل : أنا لا أريد أن أشارك فى لعنك ورجمك ،

فليفارقنا هذا « الذئب » أولا . . ،

« ويغادر البيت مع كلماته . . ويصيح منادياً جيرانه ، ويقف أمامهم كمن يلقى بيانا ، ويزعق فيهم ثلاث زعقات : (اقتلونى . . اقتلونى . . اقتلونى). تخرج جلفدان وتحيط زوجها بذراعيها، وعيناها على طفلها . . تسترضيه وتسترحمه أن يدخل البيت . . فيأبى . . فتتركه ، وتنخرط مع طفلها فى نشيج مرير . . .

وينصرف الجيران حزانى باكين » .

قدوس : أماه . . أماه

لا تتركينى . . لا تهجرينى . . يا أماه . . أمى

لا . . لا تهجرينى . . يا أماه . . أمى

لا . . لا . . يا أماه . .

لا أم لى إلا أنت يا أمى !.

لا تخرجى فى الطرقات حائرة يا أماه . .

أبواب الناس موصدة يا أمى . ،

وأنا لازلت فرخا صغيراً . ،

تعالى يا أمى . . تعالى

ضمينى إلى صدرك ، خذينى . . طوقينى بحنانك . .

أمى . . لا تتركينى . . لا تتركينى .

أترضين أن أصبح يا أمى لطيما ؟!

جلفدان : ولدى . . قدوس !

كفكف دموعك . . ولا تبك . .

إنهم يا ولدى يهيمون على وجوههم فى الأرض لكى تتم المشيئة . .

لكى تتم المشيئة . .

« وتحتضن ابنها والدمع على وجنتيها .. عندئذ يدخل زوجها ، ويقف حائرا يقبع فى أحد أركان البيت ويطويهم النعاس .. ومع الفجر رأت فى منامها وكأن ملكا زارها وناداها « هيا استيقظى لنرحل » فنهضت من نومها ورنت إلى طفلها النائم وزوجها طويلا طويلا .. فاستحثها الصوت « هيا فوقتنا ضيق ضيق » فتلقى السيدة نفسها فوق طفلها تغمره بقبلاتها .. وقبل أن يستيقظ من فى البيت .. اختطفها الملك وخرج .. وبعد الفجر كالعادة اجتمع المفتى والمدرسون لإصدار الفتوى المؤجلة .. واتفقوا على أنه لابد أولا من التوبة والاستغفار لكى ترفع العقوبة عن « منصور وجلفدان » ، وكانت المفاجأة أنهم لم يقعوا لهما على أثر ، فأسقط فى أيديهم ، وعهد إلى الشرطة بالبحث عنهما .

ستار

الفصل الثانى

المشهد الأول

« فى منزل الشلبى الكائن فوق ربوة ببغداد .. يتكون المنزل من طابق واحد ، فيه ثلاث حجرات متواضعة فى أثاثها وعلى الباب والنوافذ ستائر مزركشة موضوعة فى شكل هندسى .. فى فناء البيت بئر .. وفى أحد جوانبه طريق يؤدى إلى الباب يختفى المنصور من تبريز ليظهر فى بغداد .. ويدخل جامع عمر ببغداد بعد صلاة العشاء .. فأبصر الشلبى جالسا بين ساريتين فى الجامع .. فتصافحا وانطلقا معا دون كلام ..، وذهبا إلى منزل الشلبى .. وكان فى انتظارهما : ذو النور الدمشقى ، وفصيحى قند خارلى والجنيد ، والشيخ أبو كونى ، وأبو نواس المصرى .. وامتد بينهم حبل الحديث فى مسائل الشريعة والطريقة والحقيقة حتى الصباح ، وبعد صلاة الصبح بالجامع قابل منصور النورى ، والشيخ عز الحمدانى ، ودهرى البغدادى ، وعياض البخارى ، والشاعر رشيد الدين البلخى ، وشيخًا طاعنًا والحاج ترابى .. وكانوا جميعا يعانقونه .. ثم أقبلت سيدة مجهولة ودعتهم إلى مجلس علم فدخلوا لتبدأ الجلسة ..

منصور ومن معه

ذو النور الدمشقى

يطرق برهة ثم يرفع رأسه فى رفق

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

حسنا . . فلنبدأ بالسؤال عن ماهية الله ، ومكانه . . ؟

أبو نواس المصرى : وهل هناك حياة أبدية بعد تلك الحياة ؟

ذو النور الدمشقى : ما معنى الخلود . . والفناء والبقاء ؟

وما مصير الكون والوجود يا علماء ؟

أتصير كل هذه العوالم إلى فناء ؟

ولماذا الوجود . . مادام إلى هباء ؟

الشيخ عز الحمدانى : هذا تبسيط ساذج ، وراءه سر مبهم . .

تزدحم به الأكوان ، ويقصر دونه العقل والفهم . .

وفى النهاية حقيقة تتوهج نوراً

وسؤالك يانواس ، طُرح قديماً !.

عياض البخارى : حسنا . . فهذا أمر جديد . .

الحاج ترابى : وفى أنفسنا جميعا الحق واليقين . .

رشيد الدين البلخى : وعلى كل منا أن يفتش فى نفسه . .

فصيحى : الفطرة تتغير ، وقد تخبو نارها . .

وقضية الخلود تتنوع أشكالها . .

ونار العشق التى فى روحى

تجلو سر الخليقة لى

من عرف نفسه فقد عرفها

والمعنى والرمز يصدران عنها

وفى الذرة تلمع الحقيقة ، رغم صغرها . .

دهرى البغدادى : هذا كلام قديم عتيق . .

شغل الدنيا من عهد آدم يا رفيق . .

ما أقدم فلسفة الدنيا القديمة ! . .

هى حكمة الهند والصين ، ومصر العظيمة . .

ثم كرت دهور ، وجدت أمور

فماتت الروحانية ، ولفها الديجور . .

« تدخل السيدة المجهولة »

منصور : فى البقاء فناء ، وفى الفناء بقاء يا أصحاب . .

وأى جدوى للزمان والمكان والبعد والقرب يا أولى الألباب

ليس هناك إلا تجلى القدرة

ليس إلا جلجلة صوت الحق يا أهل الفطنة . .

أنا هو . . وهو أنا . . لكنى عدم

فهو لى كروح حلت فى جسم

عرفت حقيقتى فقلت « أنا الحق »

فتنبهوا يا أهل الغفلة . . ما ثم . . فرق !»

السيدة المجهولة : ما هذا . . هل اعتراك يامنصور حال ؟

أحق هذا . . . أم وهم وخيال ؟!.

منصور « فى وجد وتدله » : سرى فى ماء الغدير ، والبدر المنير

سرى لا يبلغ الشفق ، لكنه خطير . . خطير

ولا يطرق الحجب . . فهو هين كالنقير

« فلم تفهم السيدة شيئا من هذا الكلام المبهم . .

ووقفت تحدق فى الحاضرين ، وأخذت كتاباً من فوق أحد

الأرفف ودفعته إلى منصور . . ، ووقفت أمام الجميع قائلة »

منصور والسيدة المجهولة

السيدة المجهولة : كلامك هذا كفر عندى

مسطور هذا فى كتاب بين يدى

أنت !.

لست أعرف من أنت ؟

تقول « أنا الحق » من قمة وجدك

إنى أراك طائرا حلق فى السماء بفعل الشوق

لكن ريشه من الشوك

....

كيف يكون الشرح والتأويل !

لهذا الكلام المخيف الثقيل !

الذى يسلم الرقاب للمنون .

أى شرح له أى تأويل .؟

منصور : « يقف قليلا ، وينظر إلى السيدة والحضور »

لماذا ؟

هذا كلام قلته أمس وأقوله اليوم . .

« ضوضاء وحركة بين الحضور . . وبوادر معارضة ومجادلة ثم ينهض أبو الوفا يرد كلام منصور عليه . . »

الشيخ أبو الوفا : أراد الطين أن يزهو بنفسه

أراد الطين أن يزهو بنفسه

هلا قلت يا منصور « أنا الباطل » !

السيدة المجهولة : بكلامك يا منصور قلبت الموازين

وتعديت حدود الشرع والدين

لقد عصيت وتوبتك لن تقبل

وحكم الشرع فيك أن تقتل . .

سيطير كلامك فى البلاد

ويثير الفتنة بين العباد . .

« يبدو منصور فى تمام التحكم فى نفسه ، ويبتسم مطمئنا ويقول »

منصور : لا تغضبى . فالقدر يعرف دوما مكانه

وفى السماء رب يدبر ويقدر أحكامه

وفوق الأحكام الديوان الأكبر

ضاقت علىَّ الآفاق ، والعالم منى أصغر . .

لا أعرف صاحباً لى لم يبصر الدنيا الشوهاء .

أبصرها بالعقل وحده . . والعقل هباء .

بلادى شاسعة بلا حدود

و « ماسوى » و « ما وراء » بلا قيود . .

« تتناول السيدة بيدها منضدة صغيرة ، وتلقى بها مغاضبة فى ركن ، وتنصرف حانقة . . وينهض « ترابى » فى إثرها . . بينما يصغى الشبلى باهتمام شديد . . . ويواصل منصور كلامه »

منصور : أنا حاكم الملكوت والغيب

أقول « أنا الحق » ولا ريب

صوت الخلود من بعيد يدعونى

ومن الشفق نور يحدونى . . ،

« يدخل الجنيد ويقعد بجانبه ، بينما تبين علامات الغضب والانفعال على وجه فصيحى . . ثم يقول محتداً معترضاً ؟ »

فصيحى : فسر ما غمض من كلامك

ولا تدفعنا إلى إنكارك

منصور : أقول دائما أنا الحق

وكلامى لاريب حق

« يخرجون جميعا مغاضبين آسفين ، ويغادرون البيت ، يصحب أحدهم الآخر وأعينهم تدور فى رؤوسهم من الحيرة ، وتنطلق السيدة المجهولة إلى غايتها » .

المشهد الثانى
فى قصر الوزير حامد ببغداد
الوزير حامد - وابنه عفان - ومنصور

« قصـر فخم ، منعش الهـواء . . . تأتى من خلف الستـائر همهـمة وحركـة تنتهى فى الأروقـة . . وأحيـانا يفتح باب فى خـوف ، يطل منه شـخص ، ثم يختـفى فى حـذر وتحفـز . . . ثم يدخل اثنان من الحـرس بمنصور . . . وتخرج من عند حامد سيدة مجهولة فور دخول منصور عنده لتبدأ المحاكمة . . » .

« يقف الحارسان بالباب »

الوزير حامد : هـل كنت تثـير الفتنة بين النـاس فى جامع عمـر يا منصور ؟ !

منصور : كنت أقول لهم أنتم تعيشون فى عالم محقور . .

الوزير حامد : كنت تسعى فى الأرض فساداً يا زنديق ! .

فمن ينجيك من العذاب والتحريق ! .

منصور : طغى الماء على السواحل والشواطىء . .

ودمر كل ما اعترضه من شىء .

مشغول أنا بالتكبير . . وتريقون دمى ! .

وأنا الحق .. هى كل جرمى ! ..

« يأمر الوزير بإطلاع منصـور من شرفة القصر على الـقتلى والجرحى وأولى العاهات ... ثم يلتفت إليه .. » .

الوزير حامد : أتريد أن يخلص ملك بغداد لأوباشها ! ..

« يفكر الوزير برهة ثم يقول »

علمنا أن معك سيدة أغويتها

من هى ؟ حدثنا عما خفى من أمرها ! .

يقولـون أصابها الجـنون والجذب مثلـك ، وإنها تقـتدى بك ... ، وتقتفى أثرك .

فهامت على وجهها فى الأرض بغير هدى ..

منصور : أعرفها .. لكنك قذفتها بغير علم ،

فاذهب إليها واركع أمامها على القدم .

وأضرم أنفاس روحك وقوداً لعشقها .

لكن حذار ! فزيت قنديل العشق هو الدم ،

والقطرة من هذا الزيت ، رحمة السماء وطريقها المضرم .

الشعاع والنار والدم .. أمور جرى بها المقدور ،

كلها أدركت الخلود . . فانبثق منها النور .

لابد فى سبيل العشق أن تهان عزتك ،

وأخشى ألا تكون صادقاً فى نيتك ! . .

وتعبد طمعك الفانى فتهلك ،

وتتحرك غريزتك فتضلك .

الوزير حامد : أتبغى تهديدى بكلامك الفارغ ، وهذا الهوس ؟ !

إنى أعلم مع من هربت ليلة أمس ! .

غير أنى بعميق فكرى سأخبرك . .

ولاشك عندى أنك تسعى لإخلال النظام وفساد الأنام .

تقف فى المساجد والمدارس ، وتعقد المحافل والمجالس ،

تلقن الناس الأباطيل والوساوس .

وتخدعهم بألفاظك المشتبهات : الخالق . . المخلوقات . . الكائنات ،

المكونات . . من ؟ . . صنع من ؟ . . وأين ؟ والذرات والصفات .

والوحدة . . والكثرة . . وهل للنفس من جوهر ؟ ! . .

والحجاب الذى يغطى الوجود . . ما هو السر ؟

وتذيع فلسفتك هذه فى كل مكان ،

ولست تبغى إلا الثورة على السلطان .

فاختلف الناس واقتتلوا حول كلامك ،

وغصت الطرقات والمساجد بالجرحى والقتلى ،

وسيستفحل الداء ، وتعم البلوى . . . .

منصور : نعم . . أن أقول للناس عيشوا غير حياتكم ! . .

اتركوا الحرص والتدبير . . أحسُّوا . . تذوقوا ! . .

وكلامى يعنى الحركة والفكر والسعى . .

الكسل عندى هو شبح المقابر فى الظلام الحالك ،

هو وسوسة الفناء والسراب الهالك .

الوجود كله يحترق كل لحظة . . ثم تخمد ناره

ثم تعود للاشتعال . . ثم تخمد . . ثم تستعر ،

العشق يجعل نور الروح يسطع

ولسوف ترون فى أنوار التجلى « منصور » ! . .

« فنهض الوزير واقفا كمن أصابه مس من كلام منصور . . ويغادر المكان صوب الجناح الآخر فى القصر ليدخل حجرة فخمة . . ويدير رأسه حيث توجد سيدة مجهولة تضع فوق وجهها قناعا من حرير أسود . . يقف أمامها ابنه «عفان» ساجى النظرات مطرقا ، كمن يعانى سكرات الموت . . ثم يشير الوزير بيده لمنصور أن ينصرف ، فيمضى فى البهو يحجل فى قيوده ، يتبعه الحارسان حتى حجرة أخرى يدخلانه فيها ثم يقفان على بابها . . وبعد مدة يأمر بإدخال السيدة المجهولة عليه . . . فتدخل عليه ويغلق الباب دونهما . . بينما يقف الحارسان منصتين » .

الوزير حامد والسيدة المجهولة

الوزير حـامد : ياطالمـا سـألنا الحسناء ، ذات الجبـين الوضاء ، عن سر مقـدمها إلى بغداد . . ومـتى أقبلت ؟ ومن أين . . ؟ ومع من ؟ . . لكنها كانت تمسك عن الجـواب ! . .

ومن حق هذا الحسن الفاتن عـلينا أن نستعطفه . . ، ونستـرضيه فى النوال . . رغم ما عرف عنا من إذلال العزة واستحلال الحرمة ! . .

إن شئت جعلت فداء لك ولـدى فلذة كبدى . . أو منصورا ! أو أى شىء . . رقى . . تكلمى . . أبذل لك عزتى وخزائنى ! ،

السيدة المجـهولة : حبـيبى هو الله المـاجد . . . ومالى حـاجة فى وزير أو مال بائد . .

الوزير حامد : تعلمين أننى وزير للخليفة . . والخلـيفة إن شاء أفنى منصورا جسماً واسماً . . . ولى فى هذا السلطان نصيب كبير . .

السيدة المجهولة : الخليفة لا يقدر إلا على جسم منصور فقط . .

أنا أعرف منصورا ، يوم رأيته عند بعض أصحابه . .

الوزير حامد : تقصدين الشبلى صديقه . . الشبلى من أحبابنا . .

السيدة المجهولة : لكن حبيبى هو الله . .

الوزير حامد : إذن فحبيبـك ذلك العـاجز المحتـال الذى يقـول « أنا الله » .

السيدة المجهولة : أنا حبيبى ومطلوبى هو الحق .. وإياك والجرأة عليه تعالى ! أما عن منصور .. فدونك جسمه ، افعل به ما تشاء .. فالجسم تراب وهباء .. أما روحه ، فبينكم وبينها مناط العيوق ! اقتلوه .. أحرقوه .. هو ذا بينكم حال ماثل .. منصور هذا إن شاء أشار إلى قصرك فيطير فى الهواء .. وإن شاء أصبح أثرى الأثرياء .. كلمة منه تحيل المجنون عاقلا ، والعاقل مجنونا .. منصور يبرىء الأبرص والأعرج والعليل والضرير .. لأن الملائكة له ظهير ، إن شاء أخرج فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف دون عناء .. منصور يطّلع على ما فى قلوب العباد ، وينبئهم على ما فيها من خير أو فساد .. يضرب يده فى صعيد الغبراء ، فيخرج دراهم القدرة مكتوبا عليها « الله .. حق » ولا مراء .. يُطوى له الزمان والمكان . وهو على مملكة العشق سلطان .. فحذار ! . حذار منه ! .

الوزير حامد : ماذا قال لك ولدى عفان ؟

السيدة المجهولة : كان يقرأ شعرا يكاد يبلغ الجمال والجلال ..

الوزير حامد : وماذا كان جوابك عليه ..

السيدة المجهولة : هو مثلك فى سوء النية

وهل تلد الحية إلا الحية ؟ ! ..

الوزير حامد : ويلك قد أضلك ذلك الساحر ،

وغرك بكلامه الفاجر ! .

حذار أن تمضى معه

ودعيه يلقى مصرعه . .

ولك كل ما عندى من خزائن وغلمان

وتصبحين ملكة بغداد ، ياخير الحسان

« يدخل اثنان من الخدم فى لهفة وعـجلة ، ويخبران الوزير بأن الفتنة قد عـمت بغداد ، والخـليفة يـطلبه فى قـصر السلطنة . . فـينطلق الوزير مسرعاً . . وتقاد السيدة إلـى حجرة مظلمة ، ويغلق دونها الباب . . عندئذ ترفع وجهها نحو السـمـاء ، وتناجى الله فى ضـراعة وبكاء مكتوم . . » .

منـــاجـاة

طيور هجرت عشها وصغيرها

وحلقت فى أودية الرؤى القاحلة

كانت كل يوم تكسر أجنحتها ،

وتلقى فى الطرق المجهولة حتفها .

فكم أنت قريب يا إلهى . . كم أنت قريب ! .

وما أظلم روحى حين تهجرنى أو تغيب . .

حنانكم ! ، لا تقطعوا الوردة من غصنها ! ،

فياربى لا تجعلنى أعبد سواك ،

واجعلنى ذرة تحلق مع الصبا فى علاك . . .

أناجيك فى ظلمتى بنار زفرتى . .

فكن أنيسى يا إلهى فى وحدتى . .

أنا فى الغربة مع الريح أطير

وأضرب فى مفازاتٍ يضل فيها الخبير

تلك يدى بالدعاء أرفعها

وفى مقلتى جمرات دمع لا أكفكفها . .

طيور تنشد فى رحابك عشها وأليفها

فهلا بلغتها يوماً مطلوبها !

هذى الجبال والظلمات حجاب بينى وبينك ،

فهل تغار منى لأنها أيضا تطلب وصلك ؟ ! . .

فياربى لا تجعلنى أعبد سواك .

واجعلنى ذرة تحلق مع الصبا فى علاك

أناجيك فى ظلمتى بنار زفرتى ، ،

فكن أنيسى يا إلهى فى وحدتى . .

« ثم تنظر نحو الباب وعيناها فى سيل من الدمع »

المشهد الثالث

فى حديقة قصر الوزير حامد

منصور - وجلفدان وآخرون

« ظل الوزير فى شغل شاغل حتى الصباح بسبب الفتنة التى اندلعت نارها .. وقطع منصور يومه فى تفكير وتأمل عميق .. يذرع المكان الذى فيه ذهاباً وإيابا .. ثم يطأ موضعا كثيف الأشجار تهب منه رائحة الريحان .. ثم يسند رأسه على جذع شجرة من أشجار حديقة القصر ، وتغرورق عيناه بالدمع .. وتأخذه سنة من النوم ليرى فيها طيف جلفدان ، وهى تنشد شعراً فى السحر ... ثم تتحقق له رؤيتها واقعاً .. »

منصور : ما أكثر ما تتألم ..

تلك الوردة الضاحكة ! .

جلفدان !

دنيانا هذه رؤيا فى الكرى ..

فلماذا الصغائر والكبائر يا ترى ؟ ..

أمانى العباد قدر قد كتب

ولا يبلغونها إلا بالتعب والنصب

وهذا هو معنى القدر .. هو معنى القدر ..

«تدخل السيدة المجهولة فى خطى ثابتة ، نظرها حديد . . وهى تقول»

لكأنى أرى قدوسا ولدى ، خرج يسأل عنى . .

يمشى وحيداً حزيناً دامعاً ينادى « أمى . . أمى ! »

. . . .

. . . .

يسائل القفار والأنهار والأشجار عن أثرى

يصيح تعالى . . جلفدان . . أمى . . وارحمى صغرى ! .

يصرخ ملتاعا فى جوف القفار المظلم . .

وليس إلا الصدى . . فمن يرق له أو يرحم ؟

يخيل إليه فى الظلمات أنه يرى طيفى

فيفتح ذراعيه ويعدو نحوى . .

يحسب أنه قاب قوسين من عنقى وصدرى ،

فتعصف ريح السراب بزهرة أمله وتذرى ،

. . . .

. . . .

إن اعتنق غصنان جرى بينهما النسيم ، حن إلى حضنى ،

وإن حمل إليه الصدى صغيراً ، خاله يردد اسمى . .

تنهمر أدمعه كأوراق الشجر فى الخريف ،

وكلت قدماه من السير والنزيف . .

ليس إلا السراب والفراغ ياولدى . . ياحر كبدى . .

مرثية خليل : روحى حائرة فى المتاهات ياخليل . .

أنا كقفر موحش وطائر بغير خليل .

مكانى لا مكان . . وزمانى لا زمان

وضراعتى لا تسمعها آذان . .

أين الشمس فى القلوب المظلمة ؟

هل أخفاها الظلام والشياطين المردة ؟ !

دفنوها فى القبور الموحشات . .

بينا أظل أرقبها من فوق المنارات ! .

كانت الشمس تملأ بيتى بنورها ودفئها . .

فأقفر ، واتخذته العنكبوت بيتا لها .

كنت فيه وردة تتراقص مع نسيم الصبا

فذبلت وماتت ، وولى عهد الصبا

. . . .

تركتنى ورحلت إلى دار الخلود

قل لى أين لحدك بين اللحود ! . .

رحلت وارتحل ابنى . . ومن رحل لا يعود ! . .

رثائى لك مزق نياط قلبى . .

وأحرقنى . .

وأنينى أرقنى . .

خيالك لا يفارقنى ساعة من ليل أو نهار ،

وصوتك فى أذنى كخرير مياه الأنهار . .

لو استطعت لأضرمت النار فى القصر بنفسى ! .

ليهلك من فيه ، والقى أيضا حتفى . .

وتستقر شمس الظهيرة فى دار الخلود !

ويحترق كيانى فى النار ذات الوقود . .

وتتصاعد من قلبى ألسنة اللهيب .

سئمت شمس الظهيرة . . فأين شمس المغيب ؟ !

ربى جد لى بطلعتك يوم الحشر المهيب !

منصور : أريدك أن تمشى على الصراط فى سلام

ويتحفك بالخلود رب الأنام . .

« ثم ينشد »

كل ما على الأرض من جماد أو حيوان أو إنسان ،

إلى هلاك . . واقرئى « كل من عليها فان »

جعل الله تجلى كماله مع الحيرة

والتيه فى بلاد مجهولة سنين عديدة . .

ومن يصبر على ذلك . . ينال فى العشق وساما

وتكون نار جهنم عليه بردا وسلاما

هنالك الخلود والأبد . .

وهذا ما قاله الفرد الصمد . .

« ثم يسند رأسه على يده . . . ويبقى ساهمـا متأثرا بكلام جلفدان ، ثم يعيد كلامه الأخير عليها . . ويزيد »

كأنى أحمل آلام العاملين جميعا . . وقدرى أن

أظل هكذا حائرا ملتاعا . . فاللهم اجعل

اسمى مسلاة تسرى عن المعذبين إلى يوم القيامة . .

« وظـلا فى حديقة القصر . . مخفورين بالحراس حتى المساء . . بينا لا يغادر عفان بن الوزير حامد مقعده أمام جلفدان يتعبد جمالها الفتان » .

ســتار

الفصل الثالث

المشهد الأول

فى بهو الاستقبال

« قصر الخليفة المقتدر الموجود فى أطراف بغداد .. يجلس الخليفة فوق فرش وثيرة .. تتدلى فوقه الثريات فى بهو يزهو بالأثاث والرياش ، ويجلس معه ، الوزير حامد ، ونصر الحاجب ، والقاضى أبو عمر ، والمفتى ، ونظار ، ومستشارون ، يحوط بهم الحرس والخدم .. يضمهم حديث سمر يطول حتى الفجر كما اعتادوا .. يدور سمرهم الليلة عن المعجزة الخارقة التى أظهرتها سيدة فى قرية بالبيضاء ، إذ خرجت من حجرة مغلقة يقف على بابها الحراس دون أن يراها أحد .. ثم يأمر الخليفة بإدخال منصور »

« الخليفة ومنصور »

يجلس الآخرون منصتين

الخليفة : علمنا يا هذا أنك تلقى الناس فى المساجد

وتلغو فى كلامك وتقول « أنا الله » الواحد

فأثرت الفتنة .. لا فى بغداد وحدها

بل عمت بلاد الإسلام واستعر أوارها

أجبنى .. أولىٌّ أنت ؟ أم نبى ؟ .. أم إله ؟ أم عبد ذليل

أم عاطل شريد طريد ضليل ؟

أعاشق أنت ؟ . أم مجنون ؟ . أما عارف من الواصلين ؟
أم أنت من العصاة الفاسدين الفاسقين ؟
أضرمت النار فى الأخضر واليابس بهذيانك ،
أملك كريم أنت ، بلغت سدرة المنتهى فى معراجك ؟
كلامك غامض مقلوب ، يحار فى فهمه أولو الألباب
فاجل لنا أمرك . . . هات فصل الخطاب ! .
كيف يحل الله فى بشر فان ؟
وكيف يعلو الخلد فوق الزمان والمكان ؟ !
منصور : أنا الحق . . دلهنى الحق . . حيرنى الحق
أنا من أحفاد زرادشت ، تعلمت عنه هذا السر الأكبر
وقريتى تشتهر بالورد والعنبر والمسك الأزفر
يستيقظون مع الفجر . . ويملأون صدورهم بشذى الورود
وينطلقون مع قافلة الربيع
ويتزينون باللآلئ والمرجان
يسيرون فى أيديهم
ورود حمراء الخدود
قريتى يشع النور فى روحها منذ الأزل
فيها الحسن والشذى والنور والأمل
أهلها ينحدرون من أصل واحد وسلالة واحدة
مِلاحُ الوجوه ، يحلقون بأجنحة بيضاء كالملائكة

فلما ارتحلنا وحللنا دياركم
أخفينا أنوارنا ، وأظهرنا الظلام لكم ! .
الخليفة : ثم ما خطب المرأة المجهولة التى معك ؟
سنحضرها ونسألها نفس سؤالك . .
أصحيح أنك أطلقتها من سجنها ؟ !
لكن اعلم أن القتل خاتمة أمرها . .
امرأة مجنونة . . تحسب نفسها من العارفين . .
أين تذهب من نجل والى تبريز الفطين
مهما ارتقت فى السماء ، وغاصت فى الأراضين ؟!
منصور : البقاء من الفناء أقوى . . والعشق نور
صحيح قد يصيب العاشق يوما الغرور . .
لكن كل الناس عندى يعشقون
بيد أنهم سرعان ما يضجرون . .
الأرض التى فيها العشق لا تعرف الموت
لأنها بعد فورة بركان اللهيب تحلق فى الملكوت
أنا عاشق لألف ظل وظل أراها . .
وحيرتنى أسرار عنكم أخفيها . . .
أنا أدركت النور واتحدت به فى قمة وجدى . .
فهل أعود للطين المظلم بعد سمو قدرى ؟

دخلت عوالم شتى ووجدت الله فى روحى

وامتزج النور بالنور . . فهل يدرك الموت مثلى ؟ !

وامتزج النور بالنور . . فهل يدرك الموت مثلى ؟ !

الخليفة : ما فهمت هذا التأويل . ، فما نوع هذا التبديل . .

هل هذا من كلام ربك ؟ !

منصور : حاشا لله أن أفترى عليه كذبا

أنا مسلم . . أنا مؤمن . . وعبد فى الله هائم حائر

دلهنى عشقه ، ودفعنى وجدى أن أخرج فى سبيله وأهاجر . .

« يلتفت الخليفة نحو الوزير والنظار »

الخليفة : ما رأى الشرع فى هذا ؟

الوزير حامد : ملحد . . . . مجرم

« يقتاد الحرس منصورا للخارج وتستمر الجلسة منعقدة » .

المشهد الثانى

« حركة فى القصر ، وأبـواب تفتح وتغلق .. ينطلق الأمراء للخارج ويدخل الضبـاط والعلماء .. يقـعد منصور فى حـجرته المسجـون بها فى القصر يحيط به الناس ، وأمامه نادل طاعن فى السن .. ثم ينهض ويقعـد على طرف أريكة ثانيا إحدى ركبتيه تحتـه .. بينما جماعة الشيوخ يعكفون فى ديوان المشيخة على مطالعة صحائف ورقاع مجلدة بأغلفة خـضـراء » .

منصور : أنتم بعد أن يدرككم الموت .. تحيون حياة أخرى

تحلقون فى النور إلى الأبد ياخير الورى ..

« يصيح النادل « الله » رغم أنه يبدو مشغولا بموقده .... فأحدثت الكلمة وجدا وجذبا فى قلب منصور فأنشأ يقول » :

تركت فى سبيل الله وطنى وأهلى

أنا فى الصورة فناء .. لكن خلودى بين جوانحى

قلبى كوردة حمراء فى حالك الظلام

تتوهج من نور ذى الجلال والإكرام

كل ما عندى هو روحى فخذوها يا أحبتى ..

هى مرآة الوجود ، وخلود أسطورتى .

ألا تعلمون أنى عبد لذلك الرشا ؟ !

لو شاء يمشى على خدى مشى ..

ألقانى فى النار وأحرق لسانى

ثم أخرجنى وأعادنى فاشتعلت قناديلى . .

فخرجت لا أعرف الدنيا وما فيها . .

وهمت على وجهى فما لى بلد أرجيها . .

يا عبيد الطين والمال والنشب . .

هل بين أرواحكم والسماء حجب ؟

وهبتكم روحى وأنا غريب بينكم .

فافعلوا بى ما شئتم . . أنا لن أفارقكم . .

شهداء العشق لا يبالون بالدنيا . .

ولا يهابون الموت والردى . .

الاستشهاد فى العشق ، هو غاية المأمول

وذوقوا أنتم الموت يا أهل الفضول

أول ومضة من نوره تجذب القلب نحو السماء

ومطلوبى ومأمولى أن تتركونى مع الأضواء . .

« فيصرخ النادل من فرط الوجد « الله . . الله » ، وينقلب على ظهره يضرب الأرض برجليه . . ثم تصدر الأوامر بإخراج منصور من بين الناس ، وحبسه فى حجرة أخرى ، لكنها امتلأت أيضا بالزوار . . وأقبلن جوارى القصر على حجرة منصور وفى جماعتهن « شهر باز » جارية الخليفة المقتدر الأثيرة عنده . . فضايق ذلك الخليفة وأغاظه . . ووجم

الوزير حامد . . وخشى أن تكون جلفدان من بين الحضور عند منصور فيفتنها بكلامه الساحر ، وهو يريد أن يخطب ودها وينسيها كلام منصور هذا ، فتحرك الحقد والطمع فى قلبه ، وأخذ يحتال ليجد فرصة يقنع فيها الخليفة بإصدار أمر بإعدام منصور . . ثم لاحت له الفرصة ، وكاد أن يخاطب الخليفة فى هذا الأمر . . لولا أن نفسه اللوامة تحركت ، لأنه لا يعلم سوءا على منصور ، فسكت وراح يقلب فيما بين يديه من صحائف . . . ثم أرسل الخليفة فى طلب رأى الشيوخ المجتمعين فى ديوان المشيخة . . واستدعى من بين العلماء ابن عطاء وعبد الله بن خفيف لاستجوابهما . . . واستدعى منصورا » .

الخليفة : لو قلت يا منصور « هو الحق » غفرنا لك . .

وأطلقنا سراحك وسامحناك . .

فأعرض عن هذا الوهم ، ولا تخالف عقيدة العوام . .

وسر فى طريق الأمر بالمعروف والسلام

« ناظرا لمن حوله »

قد أفتى علماء الأمة ببطلان كلامك

وينتظرون أمرى بإعدامك

فعد إلى صوابك . . كى لا يراق دمك . .

منصور : كلا . . كلا . . لن أزدجر !

أقول « أنا الحق » ولاوزر !

وكلامى حق . .

كلامى حق . .

. . .

« ثم ينظر فى الناحية التى تغرب فيها الشمس ويزعق »

اقتلونى . . فالقتل مأمولى . . وفيه وصولى . .

« فينظرون إلى بعضهم البعض ، وينهضون وقوفا ، متجهين إلى قاعة المداولة . . . وبعد قليل يخرج منصور إلى الديوان . . وبعد آذان العشاء ، يحضر الجنود والضباط والحراس إلى ديوان المشيخة ، ثم يدخل القضاه ، ويأمر الخليفة بإدخال منصور »

القاضى أبو عمر : « ينظر للقاعة ويصيح »

صمتا . . . . .

ثم يتجه لمنصور . . .

ما اسمك . . وعملك . . وسنك ؟ قدم لنا نفسك . . .

منصور : اسمى الحسين بن منصور . . فى السابعة والعشرين من عمرى ، وعملى . . هائم ، حائر ، متعلق بالنور من يوم مولدى . .

وأهدى الناس إلى الله فى قولى وعملى

وخلاصة القول . . أنا عاشق لخالقى .

القاضى : ما دينك ؟ وما مذهبك ؟ وما هى طريقتك ؟

من أبوك ؟ ومن أى البلاد ؟ وما خطبك ؟

أجبنا عن كل ما طلبنا إليك ؟

أنت متهم بالإلحاد فى كلامك . . .

وأفتى قضاة الشرع بإعدامك . . . .

منصــور : ولدت فى مـوضع يقـال له البـيضـاء بتـبريز . . جـدى مـجوسى . . صـهرى يدعى « أبو يعـقـوب الأقطع » ، ولى ولد يدعـى مـغيث . . دينى الإسـلام . . مذهبى الـسنة ، وأحب خلفاء رسـول الله وأهل بيته ، ما تلقيت العلم فى مدرسة ، وإنما اكـتسبته إلهاما من الله . . تلقيت أصول الطريقة على يد عمرو بن عثمان المكى والجنيد ، وكنت أول مريد فى تكية سعـيد الخراسانى . . ولى مؤلفات فى الفـقه والسنة يتداولها العلماء والطلاب . . . . فالله . . . الله فى دمى ! وبأى سند تقتلون رجلا يعتقد اعتقادى ، الله . . الله فى دمى ! . .

ثم يخاطب نفسه : يارب . . أنا أفنيت ناسوتيتى فى لاهوتيتك . . !

« ثم يتجه بالخطاب إلى القاضى »

فى الشـامنة عشرة من عـمرى لبـست خرقـة التصـوف . . وخرجت للسـياحـة والتطواف . . طفت بالهـند والصين والحجـاز والبـصرة كـانوا يلقبـوننى فى الهند « أبو المعين » وفى خراسان « حـلاج الأسرار » ، وفى بغداد « المـدلـه » . . . . ذقت العشق . . رأيته فى كـل شىء . . . فرحت أدعو الناس إلى عالم المعانى والأسرار . . ثم تصموننى الآن بالإلحاد ! . .

« ثم يخــاطب نفــسـه » : يارب . . . أنا أفنيـت ناسـوتيـتى فى لاهوتيتك . .

القاضى : يعنى . . أنت طفت بالبلاد تدعو إلى الله . .

منصور : هذا أمر طبيعى معتاد . . .

القاضى : وهل أدرك الناس رموزك ومعانيك ؟ أم لم يفهموا عنك ؟ !

منصور : من أراد أن يتجرد للحق .. فليتفرد مثله

حق .. حق .. أنا الحق

ومطلوبى أن أصل للحق ...

القاضى : هل لك أقوال أخرى ؟

منصور : كثيرة .... لا يفهمها إلا من اصطفى الله ..

« **ثم يخاطب نفسه** » : يارب.. أنا أفنيت ناسوتيتى فى لاهوتيتك ...

القاضى : كفاك لغوا فى الكلام

أنت يامنصور متهم ..

« ثم يقول للجنود »

خذوا هذا المجذوب

قد فرغنا من استجوابه

« ثم يفكر برهة .. ويقترب من منصور ، ويضع يده فوق رأسه ... ويطرق ، ثم يأمر الجنود »

خذوه وأحضروه مرة أخرى

ونادوا شهوده .. !

« يدخل منصور فى حجرة مظلمة ... بينا يدخل الشهود من باب آخر يبلغ عددهم أربعة وعشرين ، من بينهم الجنيد ، ومن كانوا معه بالمسجد الجامع ... وعدد من النسوة والرجال ، يدفع القاضى بأوراق إلى الجنود .. ثم ينصرفون إلى البهو .. »

المشهد الثالث

« الليلة هى الليلة السابعة ، لخروج جلفدان هائمة على وجهها بين المقابر الجبلية ، حائرة حاسرة ، منزعجة الخاطر غارقة فى الفكر والوهم . . .

بينا يجوس خليل وولده قدوس فى أودية مقفرة جرداء الأشجار . . . ويلتئم الشمل صدفة ، وما إن لاح لها زوجها وولدها حتى عدت نحوهما وعانقتهما عناقاً طويلاً . . .

جلفدان : كيف اهتديتما إلىَّ . . ولماذا ؟

خليل : من يوم فراقك ورحيلك عنا

ونحن فى غرق من سيل أدمعنا . .

من يومها ونار الندامة تحرقنى وتكوينى

وذكراك فى الليل تقتلنى وتحيينى . . .

رحت أبحث عنك بين الجبال ياقديسة ! .

وندمت لإزعاجى حليلتى المعصومة . .

قلت : ويلى ! كان شريك مضجعى ملاكاً رحيماً !

ولضلالى ظننته شيطانا رجيماً . .

رأيتك فى منامى حورية بين الحور

تتبخترين فى غلالة من نور . .

رأيتك هائمة فى عشق العلى القدير

تنتقلين بين ربى بغداد والزهور

أخبرنا درويش يوماً أنه رآك

فطرنا بجناحين من الشوق للقياك . .

وأخذت ولدى قدوساً وانطلقنا على عجل

يحدونا نحوك الرجاء والأمل . . .

قطعنا قفاراً فى جمر اللهيب

وأرمدتنا الريح الهبوب . .

جلفدان : رأيت نفس رؤياك . . . ونفس الريح أرمدتنى

فهذا حظ المسافر الوحيد من العذاب والضنى . .

رأيت أشباحاً وأقواماً . . .

وكم سمعت همساً وكلاماً ! ،

وكم قاسيت أهوالا يشيب لها الولدان ! . .

كنت أرى السماء كسقف السجن قريبة منى !

أنادى ويجيبنى الصدى . . وأحجب شمس الظهيرة بكفى . . .

كنت أخاطب الملائكة ، والشياطين

ويأمروننى . . . . إمضِ . . فمضيت

حتى نزلت وادياً مظلماً

جلست تحت شجرة صفراء عتيقة فى أسفلها فجوة

وبلغت قصراً عتيقاً تسكنه الشياطين المردة

ومضت ليلتى الأولى هكذا

ثم ما أغرب ما دار وجرى ،

فى القصر شياطين تتراقص وتتزاوج

وملائكة فى الظلام تلعب بسعف النخيل ، وتمضى فى أفواج ،

وأسمع أصواتا تنبعث من الحفر والمغارات

وأرى حواة طوال الوجوه غريبى الملامح والنظرات

ثم طاروا وطرت معهم فى كل مكان

حتى بلغنا سور الصين . . .

وهناك قام المشعوذون والساحرات والحواة

وغسلوا بالدم أيديهم والجباه

ودخلت مغارة موحشة يقبع فيها الموت الزؤام

فى مدخلها شمعة تنير فى الظلام

فرأيت بها رجلا كبير العمامة يرسل لحيته

يرتدى خرقة سوداء شائكة

ويتربع فوق تخت فى المقدمة

تحوطه أربعة أحبال مفتولة محكمة

فأدركت أنه ملكهم ، وتلك ليلة عرسه . . .

لذلك تحمل الجنيات الشمع بين يديه وخلفه

ثم انطفأت الشموع ولف المغارة الظلام

وانقلبت الجنيات إلى دجاج وعنزات وبقرات سمان

وتحول كل حبل إلى حية رقطاء

وتحولت الجبال إلى مكعبات صغيرة يلعبون بها النرد

وإذا بى أرى بيوتا خربة ، وعتبات ، وأعمدة تتراقص فى نظام

وأخذت الجنيات تتراقصن وفى أيديهن عظام

« ينصرف المشعوذون والساحرات والجنيات والشياطين والملائكة »

وقبل أن يلوح الصباح

اختفى كل شىء ياصاح

وفى الليلة الثالثة خرج معى أربعون ألفا من البغال آذانهم طويلة ، وفى أيديهم سواطير ، وذهبنا إلى ديار الغيلان وهناك رأيت الشياطين تدق صدورها بالأحجار والصخور

« ينطلق صياح ديك . . . فيمتقع لون جلفدان »

ثم انقضت ليلتى السابعة

وعدت إلى سيرتى السابقة

« ثم تنهض جلفدان فجأة . . وإذا بجواسيس القصر أدركوها فيقبضون عليها . . يتوجس خليل وقدوس ولده . . ويأخذونهم جميعا ويدخلونهم السجن مع منصور » .

منصور : أنا يا خليل لى زوج كزوجك

وولد صغير من الحسرة هلك . .

حل العشق بروحى ابتلاء من السماء

فذوت زهرة قلبى وطواها العفاء . . . .

كنت أهرب منه ، وفى هروبى يزيد شوقى وحنينى

فيعصف العشق بقلبى ويضنينى !

والله يا خليل عشقى ما له مثيل !

وأدعو من كل قلبى للمهجورين فى الليل . .

آه يا خليل لو ذقت كما ذُقنا ! . . .

وشربت من فرات الخلد كما شربنا . . .

فيارب العرش لا تحرم الغافلين من هدايتك . . !

ولا تهجرهم وتعذبهم . . . يارب بعزتك . .

الغرباء ياخليل يألفون الغرباء

ومن الحيرة الواجفة تتولد الحقيقة فى جلاء

« ثم صاحت الديكة ، وظهرت خيوط الشفق ، وارتحلت ملائكة السحر . . . فيضع منصور يده اليمنى على وجه خليل وولده قدوس ، ويمر بها على وجهيهما . . . فيرتفع عن أعينهما حجاب السر ويشعران وكأن روح الخلد تهبط عليهما من بين أوراق صغيرة رقيقة ، وتهب عليهما أنسام الجنة العطرة فتنعشهما . . . لكأنهما يسمعان موسيقى السماء الخالدة من وراء الحجب . يشعر الجميع وكأنهم فى مجلس قريب من عرش الرحمن ، ترفرف حولهم الملائكة بأجنحتها . . . ثم تتملك منصورا نشوة الطرب ، وجذبة العشق فينطلق لسانه بكلام غامض مبهم . . . »

منصور : يا حبيبى ! أنت عشقى وحبى الأكبر . . يا من تعرفون حبيبى ! . . يا من تعرفون الله ! . . أنا خادمكم ولاضير ! يا ملائكة

السمـاء ، وياغرباء الأرض ، ويا أوليـاء حبيـبى الأكبـر . . . أنا خادمكم ولاضير ! . .

يا مقربين . . يا محيرين . . يا معذبين . . ارفعو الأستار . . أنا قادم إليكم ! . .

« ثم يصمت مدة ويرفع رأسه فى حيرة وينشد »

هؤلاء جميعا يعرفون الأسرار

الملائكة نور والجن نار

والخلق والكون نور

وكل شىء له بالنور الظهور

الدنيا وردة حسنها يضل

والملائكة جزء والإنسان كل

الكمال أيضا فى الصورة

وفى الصورة تكون السيرة

« فيصرخون جميعا من الوجد . . . ثم يختفون » .

ستـــار

الفصل الرابع
المشهد الثانى
مجلس الشورى المنعقد فى القصر

« يتشكل المجلس من الخليفة ، وحامد بن العباس ، والوزراء ، ونصر الحاجب ، وجماعة من العلماء والشيوخ ، منهم أبو عثمان ، وعمر بن عثمان المكى ، والجنيد والشبلى ، وعبد الله بن خفيف ، وأبو القاسم التسترى، وأبو سعيد الخراز ، وأبو الخير النساج ، وأبو يوسف الحمدانى ، وأبو الوفاء ، وابن عطاء ، وآخرون يجلسون جميعا صامتين ، بينا يقلب القاضى أبو عمر فى دفاتر بين يديه ، ويبدو كبير الكتبة وقد انتهى من قراءة بعض الأحكام » .

الوزير حامد : يقضى الشرع بإعدامه وصلبه ورجمه . !

الخليفة : إنى رأيت أمس رؤيا مزعجة ، رأيت وكأن وباء يعم المسلمين ، وكأنى واقف بين يدى الله يوم القيامة يحاسبنى على تقصيرى فى قمعه !! . . ومجلسنا يضم صفوة وجوه الأمة من وزراء وعلماء ومشايخ ، لينظروا هذه القضية من وجهة نظر الشرع ، دون الخضوع ، لأية مؤثرات ، لأنها حدود الدين ، وحقوق العباد علينا ، فلابد أن تؤدى على وجهها الأكمل ، فلا يعلو إلا صوت الحق والعدل . .

الوزير حامد : جمعنا أربعة وعشرين من الشهود لسماع شهادتهم تحريا للعدل . . فإن اتفقت شهادتهم ، لابد من وضع الحق فى نصابه . .

الخليفة : ثم نحن لسنا الحكم فى هذه القضية ، فالكلمة الأولى لقضاة الشرع وشهادة الشهود ! . .

الوزير حامد : وكلهم من العوام ، ومنهم أهل الطريق . .

ابن عطاء : لكن أغلب الشهود من النساء ولا يتم بهن نصاب العدل

رشيد الدين البلخى : إنا نريد أن نستجوبه ،

ونسمع ثانيا كلامه . .

ويجادلنا ونجادله ،

ونبلو حقيقة إيمانه !

« فى تلك الأثناء يدخل رسول القصر ، وينبىء الخليفة أن السيدة المجهولة هربت من السجن . . وبعد قليل يدخل رسول آخر ، ويخبر الخليفة أن منصورا غير موجود فى الحجرة التى يقيم فيها فى دار المشيخة . . . فيمتقع لون الخليفة ، ويظل واجما لايبين . . فانتهز الوزير حامد فرصته لإقناع الخليفة بنيته السيئة » .

الوزير حامد : لابد من سرعة قتله حفاظاً على حرمة الدين ، والشرع يا مولاى . . .

نصر الحاجب : لكى نقيم ميزان الحق والعدل والشرع ، لابد أن نفهم كلامه بمعناه الحقيقى ، ولربما استصوبنا عقيدته ! . . كما لابد من تحرى الدقة فى أحكامنا ، وإلا حملنا دمه فى رقابنا ! . .

الخليفة : هذا صحيح . . ،

أحد الوزراء : ولابد من فتوى شيخ الإسلام . .

الخليفة : وهذا أيضا صحيح . .

وزير آخر : كلا . . ليس صحيحاً يا مولاى ! لأنه سبق استجوابه ، وقد حكم هو على نفسه بالكفر ، ودعانا إلى قتله . . وهذا يكفى ! . .

الخليفة : لكن هذا لا يعفينا من الاستنارة برأى العلماء . .

أبو عثمان : يامولاى : هذا ساحر ، مشعوذ ، يخالل الجن والشياطين ، ويعرف التنجيم والطلاسم . . . ويكتب كتابة غريبة بمداد أسود وأحمر ، ويخرج رقاعا يكتب عليها طلاسم ويعطيها للسيدات من العوام ، ويشكلها لهن فى أشكال مختلفة . . ثم هو أيضا يغير صورته . . فأنت تراه هنا فى صورة ، ثم تراه فى مكان آخر فى صورة أخرى ، ويرتاد الأماكن الخربة الموحشة ، وتصدر عنه غرائب وعجائب . . يتحلق الناس حوله فيأخذ فى التسبيح والتمتمة ، ثم يقبض يده فى الهواء ويفتحها فإذا فيها دراهم قد كتب عليها « أنا الله » فتقع الفتنة بين الناس . . وهذا خطب جليل يا مولاى ! . .

عياض البخارى : ليته يقول « أنا الله » ولكنه يقول « أنا الحق » وما أعظم الفرق بين القولين ! . .

الوزير حـامد : إذن ، لابد من اسـتصـدار فتـوى بقتله من شـيخ الإسلام . .

وزير آخر : لكن هناك من يؤمن بهذه الكلمة ويقبلها قبولا حسنا . .

الخليفة : أصبت فى كلامك ! . .

« يدخل شيخ الإسلام »

عبد الله بن خفيف : منصور عالم ربانى ، أسكرته أنفاس السحر ، وهو عالم بالأسـرار ، ذاق حلاوة العشق . . هو فـوق الزمان والمكان ، لا يدرك الفناء مـثله ، روحه حـائرة بالوجـد تحرقـها تجليـات الحق . . . هو حبيب الله ، والله مطلوبه ومـرغوبه ! . . يسكره جمال الكمال ، ويغـيبه كمال الجمال ، فيخلع العذار وينطلق لسانه بكلام يأتيه من خزائن الغيب ، ويكفى ما يصدر عنه من كرامات ! . .

الجـنيد : نحن لا نقـف على حـقيـقة باطنه . . أمـا ظاهره فـهو كفـر ! . .

أبـو الـوفـا : غير أن له أتباعا ومريدين من الفقراء والمساكين وذوى العاهات والمجاذيب . . وهو هاديهم وشافـيهم وقاضى حوائجهم . . يرونه ويسمعون كلامه فـتنشرح صدورهم وتنفرج كروبهم . . بلغ « الكل » ومن

« الكل » دخل إلى «الجزء» فـرأى أشياء لا تدرك بالعين ، وصـار لا يبالى بالموت . . هو رجل كـشف الله له عن شيء من أسراره ، فـصار يـحدث الناس عما فى قلوبهم . . . هو مدله فى مقـام الحيرة ، وهو مقام ليس لنا بلوغه إلا إذا سكرنا بخـمره . . ماذا تنتظرون من رجـل اصطفاه الله بنوره وكشف له عن جـماله ؟ ! أكثـير عليه أن يصـبح عبداً ربانيـاً يقول للشيء «كن فيكون» هو يرى الواحد فى الكثرة ، والكثرة فى الواحد . . أو بمعنى آخـر : يرى الله فى كل شيء يراه ! . ففنـــى فى جمــال الله . . فــمن تقتـلون ؟ ! دونكم جسمه فاقتلوه ، إن كان يجدى ! . .

« ينظر القاضى أبو عمر إلى الوزير حامد فيراه فى غم وهـم ، وتمتلك الحاضرين حيرة كبرى » .

أبو سعيد الخراز : وأنا أيضا ، أرى أن الحكم على رجل مثل هذا من أصعب الأمـور . . لكن كيف يكون كـافراً وزوجه التى تعـاشره تشـهد له بحسن السيرة وكمال الإسلام ؟ !

أبو القاسم التـسترى : وهل تجتمع الأمة على بـاطل ، فيحكمون على مؤمن بالكفر ، وعلى كافر بالإيمان ؟ ! . .

أبو يوسف الحمدانى : نحن ما رأينا عليـه سوءاً . . رأيناه يقضى حاجـة المحتاج ، ويفـرج كربة المكروب ، ويبرىء الأكـمه ، والأبرص ، ويسارع فى الخيرات . . هذا ما رأيناه . .

أبو على الفرماوى : أجل ، وما يفعله مشروع منذ الأزل ، فالوجود مرآة يتجلى فيها الله ، فهو موجود فى كل شىء . هل نرى فى الموجودات إلا ومضة من نوره أو أثراً من آثاره ؟ ! سبحانه لا موجود إلا هو ! . . فرق فى قلوب عباده أقباساً من نوره ، كل حسب درجته . . واعلموا أن أصل كل شىء هو النور ، ثم تعود الأشياء إلى النور ، أما المادة فهى عبارة عن الحواس ، ندرك بها ما حولنا ، ثم هى إلى عدم . . ولهذا قال منصور :

(يارب . . لقد أفنيت ناسوتيتى فى لاهوتيتك)

لأنه شاهد أنوار الجمال والكمال ، وبلغ المقصد الأسنى ، وتوحد بالله ، فصار يسمع كل شىء يلهج « حق . . حق » فصاح فى نشوته «أنا الحق » ؟ . .

الخليفة : ولماذا تسمونه « الحلاج » ؟

الوزير حامد : من سحره يامولاى

أبو الخير النساج : كلا ! . أنا رأيت من كراماته وخوارقه أموراً كثيرة ، لست أرى ما يدعو إلى ذكرها الآن . . لكنى سأروى لكم خارقة سماه الناس بسببها «الحلاج» ، كنت يوما مشغولا فى حانوت لى لحلج القطن ، فإذا به يدخل علىّ ويقول لى: يانساج هلا قضيت لى حاجة !. . فقلت : أنا مشغول بقطنى . . فقال : اذهب وسأعمل مكانك . . فخرجت وقضيت له حاجته في مدة قصيرة ، فلما رجعت وجدت كل ما فى الحانوت من قطن قد حلج ، فشهدت له . . ودخلت عليه مرة بعد

منتصف الليل ، فقال لى : تشه الآن ما تريد آتيك به ، ثم أشار إلى سجادة فرفعتها فإذا تحتها دراهم كثيرة ! . .

الخليفة : ثم ماذا ؟

الوزير حامد : أجل يامولاى ! إنه ساحر يمارس الشعوذة والنيرنج . . ويتصل بالجان والمردة ، ويفتن الناس بخرافاته . .

الشبلى : ما يصدر عن منصور من كرامات ليس سحراً أو شعوذة . . إنما هو أمر مألوف ممن انقطعوا إلى الله ، فيتجلى لهم بخارقة ليزدادوا عشقاً وهوسا .

الوزير حامد : مهما كان فى الأمر ، فإنا سنقتله عملا بفتوى شيخ الإسلام ، وكفى من اقتتلوا بسببه وماتوا . . لابد من القصاص منه . .

نصر الحاجب : العجلة من الشيطان أيها الوزير ! ، ولابد من التروى فى الحكم . . . فلنعقد غدا الديوان ، ونستفتى قضاة الشرع ، وليمثل منصور أمام القضاة ، ويعاد استجوابه ويقلب كلامه على شتى الوجوه ، ثم نسمع شهادة الشهود ، وبعد ذلك نصدر أحكامنا . .

الوزير حامد : لقد ثار الناس من أجله فى الطرقات والحانات ، والدولة الآن مهددة بالفتنة . . ليس للناس فى الأسواق والمساجد إلا منصورا ! . . لقد أثر فى الناس أكثر من نبى مرسل ! . . وهو الآن مقبوض عليه ، والشرطة تنتظر أمر مجلسنا فيه ، ولو انتظرنا لغد ستعم الفتنة ويصبح الأمر وبالا ! . .

« يلف المكان صمت عميق ، ثم يصدر الخليفة الأمر بمثول منصور أمام المجلس . . فيجلس حامد مقطباً جبينه ، وبجانبه كبير الكتاب ، ثم ينظر إلى شيخ الإسلام . . . يبدأ الخليفة المحاكمة » .

الخليفة : يا هذا الدرويش المجذوب ! .

لماذا تصر على كلامك المقلوب . .

لو قلت « هو الحق » بدلا من « أنا الحق »

نجيناك ! .

منصور : كيف ستحكمون على مثلى ؟ !

كيف ستقضون فى أمرى ؟ !

الحق حق ، والدنيا متاع زائل . .

أتريدون أن أقول « أنا الباطل » ؟ !

أنتم لا تدركون عشقى لربى

وتلك نفحة أخذتها عن جدى ! .

الخليفة : أعرض يا منصور عن « أنا الحق » وقل : « هو الحق »

ننجيك من الهلاك . . .

منصور : نحن فى الأصل نور ، وبقلب كل منها نقطة سوداء

ثم انحسر النور بداخلنا وأخذ الظلام فى النماء

وبداخلنا قتال مستمر بينهما

ونحن صرعى خصامهما ! .

غير أننا نعيش لا نبالى بالصراع . .

ونتعامى ونقنع بالسراب والخداع

دخلنا حديقة النور فما قطفنا زهرة ! .

وتنقلنا فى سوق الطمع ، وما صرخنا صرخة ! .

أنوار الإيمان ترشدنا وتهدينا . .

تحيرنا وتضرم النار فينا . .

أنا طفت بالكعبة ومعابد الأصنام . .

وتخلصت من « ماسوى » و « ما وراء » يا أنام ! .

أنتم مخدوعون بمتاع الدنيا والمال والنضار

ودنياكم إن هى إلا دار بوار . .

وما أكثر عباد الطمع والغفلة .

وأقل أهل الذكاء والفطنة . . .

رأيت نفسى يوما فى غرق من سيل أدمعى

وسكرت وسمعت كل شىء يقول « أنا الحق » معى

فكيف تقبلونها من الجماد يا رجال ، . .

ولا تقبلونها من أسير الجمال والجلال . .

الوزير حامد : « ناظراً للحاضرين »

أرأيتم كيف يصر على باطله ، ويبغى فساد الدنيا والدين ؟ ! وفى فتوى القاضى أبى عمر ما يؤكد إفكه فى أقواله وفيما كتب فى مصنفاته . .

يكفى شاهداً على ادعائه الألوهية قـوله « أنا الحق » وإن اعتبرتموها شطحة جذب ، ففى كتـبه أباطيل كثيرة ، وفى ديوانه المخطوط ما يثبـتها عليه . . ولنقرأ له ! . .

سأبنى لى عرشا فى عالم النور

لا يعرف الموت ولا الليل والنهار ! .

سئمت الجهل والحماقة والغباء . .

وطمعا كطمع الكلب فى الشواء ! .

سئمت بلادة الفهم وسوء الخلق . . .

سئمت السخف والزيف والملق ! .

نحن صرعى الذل والغرور . .

ولى مثل ما لكم من الشرور ! .

« يصمت منصـور وكل الحضور ، ثم يـضع حامد الديوان بجـانبه ، ويتناول بيده كتاباً آخر من كتب منصور يقرأ منه »

(أنا لا أتعصب لمذهب من مذاهب الفقهاء)

« ثم يقلب صفحات الكتاب ويقرأ من إحداها » :

(الطبيعـة هى التى تنبت البذرة ، وهى التى تخلق الحيـاة والحركة ، وهى التى تصـور الأجسـام ، وبيـدها المبـدأ والمنتهـى ، والقـدر والجنـة والنار . . ولها قدرة الألوهيـة . . ومن ثم فأنا بملكات روحى أسيطر على كل شىء . .

الكل يأتى من الجزء ، فصرت أنا الجـزء والكل وعنى يصدران معاً ، أنا السـر الأكبـر ، ولى علم بخفـايا اللطـف والقـدر .. ولهـذا أقـول لـكـم « أنا الحق »)

« يخيم صمت مطبق على المجلس »

شيخ الإسلام « لمنصور » : هل لديك ما تدفع به عن نفسك ؟ !

منصـور : نحن لو آمنا بأن كل شىء يأتـى من عند الله ، لرأينا كل شىء حسنا جميلا .. ورضينا بدنيانا ! .

شيخ الإسلام « محتدا » : كفرت يامنصور ! ...

منصور : هذا عندى هو النور ! ..

المشهد الثانى

« يدخل منصور السـجن ، وتقاد السيدة إلى منزل الإمام لـيعاد النظر فى أمرها من جديد »

السجن : «زوار يزورون منصورا فى السجن ، من بينهم ابن عطاء ، وعبد الله بن خفيف»

« بعد أن اقتاد الحراس السيدة إلى منزل الإمام أحاطوا جميعا بالسجن الذى يقيم فـيه منصور ، خشـية أن يقوم الزوار بثورة أو يحـدثوا فتنة .. وقفوا يسمعون كل ما يدور ، وفى أيديهم أسلحتهم » .

« كان السجن فى آخر « سوق البزاز » أبوابه الخارجية من الحديد الأسود ، والأبواب الداخلية من الخشب المحاط بسياج حديدى غليظ ، يحيط بالسجن سور شاهق البنيان . . تبدو حجرات السجن ضيقة ، غائرة فى الأرض ، نوافذها من خشب الأرابسك » .

« السجن عبارة عن جناحين متقابلين ، يفصل بينهما فناء ، تتوسطه عين ماء . . حجرات السجن من الداخل لا تتسع إلا لسجين واحد ، تفوح منها روائح خبيثة ، وقد يتسرب من نافذتها ضوء خافت لشمعة هزيلة . . فلما أدخل منصور حجرته اتسعت وازدانت جدرانها ، وملأتها رائحة البخور ، وهب فيها نسيم عطر ، حتى بدت كروضة غناء . . فتحلق الناس حول منصور فى سجنه كل يوم ، ليسمعوا شعره وموعظته » .

« تنطلق آهات حزن وأنات عذاب وحشرجة ، من حجرة مقابلة لحجرة منصور ، بينا تأتى من حجرة مجاورة لحجرته نغمات عزف على الرباب ، وصوت شجى يغنى فى حزن ووله . . . فيمسك منصور عن إنشاده وينصت إلى الصوت الشجى . . ويطرب وينتحب ، نغم الرباب يعلو ويخفت ، ولايزال الصوت يرسل غناءه القريب من الأنين . . . ينهض منصور ويمضى فى هدوء نحو الصوت . . فيرى شاباً أسمر اللون طويل القامة ، فيسأله .

منصور : ما اسمك ؟

الشاب : مقصود الموصلى . .

منصور : ما جرمك يا مقصود ؟

مقصود : قضاء الله يا سيدى . . .

منصور : من يكون الحظ والقضاء . .

أشواك فى حديقة خضراء . .

ومن يحلقون بغير جناح . .

يصطلون نار العشق ولا جناح ! .

قدر الله الأمور ودبر ،

فى الأراضين والأبحر . .

ونحن لا نعلم ما سطر فى اللوح لنا

لذا ، ننوح على رباب أعمارنا . .

السجن والحراس ، خيالات ،

والبراعم والرياض والطيور ، نغمات . .

كلها سكرى من الرؤى . .

والنور فى حناياها سرى . . .

السجن الحق ياصاحبى هو جسمك . .

يجذبك للطين ويمسك ! .

فمن أفناه وأحيا روحه . .

طاف بقصر البللور فى جذبه ! .

فهيا بنا هيا ننسخ الصورة !

ونرشف البحر مع الحمائم قطرة قطرة ! .

إن وهبت نفسك فى سبيل الروح ،

فى الدنيا والآخرة لن تنوح ! . .

« ثم ينظر منصور فى اتجاه آخر ، وكأنه يتأمل الشفق الذى تحجبه جدران السجن ، ويحس وكأن روحه تحلق فى عوالم مجهولة ، وكأن نسيم الشوق اختطفها وراح يحلق بها فى مملكة الحيرة والوجد . . هو عالم تغشاه ظلمات كثيرة ، لكنه خالد للأبد ! . . ثم يأتى بعض زوار منصور ، بينا لا يزال الحراس يحيطون بحجرته . . وفى كل مساء وصباح يمضى مخبر إلى الوزير حامد فيخبره بكل ما يدور . . » .

« فى اليوم التالى يأتى ابن عطاء وعبد الله بن خفيف لزيارة منصور فى السجن بأمر من الخليفة » .

عبد الله بن خفيف : يا منصور ! جئناك متوسلين راجين . . . ارجع عن قولتك . . يرحمك الله ! .

منصور : كيف أبدل كلامى يا ابن خفيف ؟ !

وأخشى الناس ولا أخشى اللطيف ! .

« ينظر ابن خفيف وابن عطاء إلى بعضهما البعض فى ندامة وحسرة . . وينخرطان فى بكاء مرير ويصيحان «هلك الشيخ . . هلك !» وينصرفان . . وانقطعا عن زيارته مدة من الزمن ، بعد أن أطلعا الوزير على ما كان . .

دخل منصــور السجن فى يوم الثـلاثاء ، وفى يوم الثلاثاء الذى تلاه كـبل بالأغـلال والسـلاسل وأمـر بأن يخرج عـلى الناس القـادمين لزيارته وهو يحجل فى أغلاله . . فلما رآه الناس فـاضت أعينهم من الدمع حسرة على حاله . . ثم أعـيد إلى سـجنه . . وفى هجعة الليل ، انـطلق رباب جاره السجين فى أنين مـرير ، فتواجـد منصور ، وأخذته نشـوة الطرب ، فرفع صوته يناجى الله مناجاة ضارعة شاكية باكية » .

مناجاة فى السجن : يارب ! . . دعائى تردده السماء والأشجار

ولوعتى يقاسيها معى النجم السيار ! .

يارب ! . . رأيت سحر الدنيا فى الربيع فجننت . .

وجرى بحر الحسن أمامى فارتويت . . .

يارب ! . أنا ريشة تدفعها الريح فى مهبها ،

وقلبى يرفرف فى سماء ما أرحبها ! .

آهتى تسمعها قوافل الهجرة . .

وهى لهلكى العشق الأزلى نغمة . . .

أنهار الجنة تترقرق فى الرياض رويداً رويداً . .

وأصوات الخلد بأرواحنا تسرى . .

فيارب اجعل لى مكانا بين ملائكتك ! .

وارفع دعوتى إلى عتبة عرشك . .

ربى وخالقى وإلهى ! أحبك والحب قاتل ! .

أطير إليك بجناح شوق وردى كلون ورد الخمائل ! .

يارب ! . ضقت بحبسى فى مكان مظلم . .

فاستجب يارب لشكايتى وارحم !

يارب ! دعائى تردده السماء والأشجار ،

ولوعتى يقاسيها معى النجم السيار

يارب ! رأيت سحر الحياة فى الربيع فجننت . .

وجرى بحر الحسن أمامى فارتويت .

روحى كفراشة المصباح أراها ! .

لا تقوى على دخول الحديقة خشية حارسها ! .

فيا سأمى لهجرانى !! . .

هدم البعد أركانى ! . .

« وبينا كان منصور يرسل زفرته تلك إلى عرش الرحمن ، تزاحم الزوار لسماع تلك المناجاة الضارعة . . فيفرقهم كبير السجانين وأعوانه . . بينا يصيح منصور « حق . . حق . . . أنا الحق » وفى الصباح كان كل ما دار عند الخليفة . . فاستدعى الخليفة القاضى أبا عمر مرة أخرى ، وأخرج منصورا ثانية للمحاكمة » .

الخليفة « للقاضى » : طبيعى أنك علمت بما جرى . . منصور هذا يلف حبل المشنقة حول عنقه ! . . لقد أغوى المسجونين فى السجن ، فعشقوا كلامه . . كما أغوى بعض زوار السجن من وجوه الأمة . . .

يزدحم الناس فى قاعته وما أن يراهم تحلقوا حوله حتى يهذى ويلغو ، ويأتى أمامهم بخوارق ومعجزات تبهرهم ، فيخرجون من عنده يذيعونها فى الناس ! . . فلابد أيها القاضى أن تحكم بإعدامه ! . . وتضع حداً لهذه المهزلة ، لتستريح من شره الأمة ! . .

القاضى : هذا ما يريده الوزير حامد يا مولاى . . غير أن ما يعوزنا الآن هو الحجج والبراهين التى تبيح سفك دمه . .

الخليفة : إن أعوزنا الدليل ، فيكفينا اعترافه . .

القاضى : ليس فى اعترافه ما يبيح سفك دمه . لأن كثيراً من أولى الرأى والعلماء يقولون بصحة اعتقاده . .

الخليفة : فليمثل منصور فى حضرتنا مرة أخرى . .

« يقتاد الحراس منصوراً وهو يحجل فى قيوده وأغلاله ، ويتراقص طربا بين الناس الذين اجتمعوا فى ساحة القصر ويصيح : « أنا الحق . . أنا الحق » « لم تحن ساعتى بعد ياقوم ! » .

الخليفة « لمنصور » : هل تدعى الألوهية ، وتنكر الكتاب والسنة يا منصور ؟

منصور : الإسلام عقيدتى ، والسنة مذهبى ، كم ذا أجل رسول الله وصحابته وأهل بيته ! . .

الخليفة : وتقول « أنا الحق » ! .

منصور : أجل ، أنا الحق . .

« يخرج منصور »

الخليفة للقاضى : ألست ترى أن كلامه يخالف الشرع والدين ؟ !

القاضى : لكن العلماء يؤولون كلامه يامولاى . .

الخليفة : هل يتفق هذا مع أحكام الشرع ؟ وهل فى ذلك اجتهاد ؟ ! إذن فاستجوبه أنت يا إمام .

« يدخل منصور مرة أخرى »

القاضى « لمنصور » : يا منصور ! هل أنت مؤمن حقا بصحة قولك « أنا الحق » ؟

هلا رجعت يا رجل إلى الكتاب والسنة والإجماع والاجتهاد وأصول الطريقة . . فربما تعدل عن قولك ! .

منصور : لقد سبق لى أن أجبت عن هذه الأسئلة ، هذا دينى واعتقادى يا سيد ! . .

القاضى : عن يقين يا منصور ؟ !

منصور : عن يقين يا سيد . .

« يعاد منصور إلى السجن مرة أخرى »

القاضى « للخليفة » : ما فتح الله به علينا من علم لا يستطيع تأويل هذا القول يامولاى . . ولا تثريب علينا لو أصدرنا الحكم الآن ! . لكن ذلك سيثير العامة ، لأنهم يعشقونه . . أنا ليس عندى ما يمنع من إصدار الحكم الآن ! . لكنى أرى لكى تقوى حجتنا أن نلتمس له خطراً سياسياً . . وحبذا لو وافانا المفتى بفتوى تبيح دمه ! .

الخليفة : مرحى أيها القاضى ! .

القاضى : أجل يا مولاى ! . لأنه لا يمكن الحكم فى قضـية معضلة مشتبهة كهذه إلا بالجرم الثابت ، والإقرار العلنى ، والبراهين الصريحة . .

الخليفة : حسنا . . تلك مهمتك يا إمام ! .

« ينصرف القاضى ، وفى الليل يزوره الوزير حـامد الذى يفيض قلبه حقدا على منصـور ، ظنا منه أن جلفدان تعشقـه ، وهذا هو سر إبعادها عنه ، ويهدد الوزير الـقاضى من عاقـبة تأجيل إصـدار الحكم . . ثم يأمر حامد بإرسال منصـور فى منتصف الليل إلى دار المشيخة لسـحب اعترافات أخرى منه ، فلما ذهب الحراس لإخـراج منصور ، لم يجدوه فى سجنه ، وفتشوا عن باقى المسجونين فلم يجدوا أحداً منهم ، فطار الخبر إلى الخليفة والوزير حامد ، وباقى الوزراء ، فـأسقط فى أيديهم جميعا ، وشـاع الخبر فى بغداد فقامت له ولم تقعد » .

الخليفـة « لمنصور » : أخبـرنا رسول الوزير ، ورسـول القاضى ، أنك هربت من السـجن ليلة أمس الأول ، ثم وجـدوك أمس ولم يجـدوا السجن بمن فـيـه . . أخبرنـا . . أى سحر هذا الذى تصنع ؟ لقـد أمرت بحبس كل موظفى السجن لإهمالهم. . قل ! . من أعانك على الهرب ؟ ! وإلى أين مـضيت ؟ ! أنت حـيرتنـا يا منصور ؟ ! . . . وسـحرت الدنيـا بسحرك ! . ولابد من شنقك وشنق عصابتك ! . .

منصـور : ليـست لى عـصـابة سـاعـدتنى عـلى الهـرب ، ولاذنب للسـجانين . . . أمس الأول ، خـرجت لزيارة الحـضرة ، وأمس جـاءت

الحضرة لزيارتى . .

« فينظرون إلى بعضهم البعض فى حيرة ، ويقتاد منصور إلى سجنه مرة أخرى » .

المشهد الثالث

« القاضى أبو عمر والوزير حامد ، ثم يأتى الجنيد وعثمان المكى ، ومن خلفهم الشهود والمخبرون . . فى وسط القاعة توجد كتب وأوراق كثيرة » .

الوزير حامد « للقاضى » : لقد أخذت القضية وضعاً خطيراً لهروب منصور منذ يومين من السجن . . فحرض العامة بذلك على التمرد والعصيان . . وها هو ذا أمس قد سحر الخليفة بكلامه ، حتى جعله يعدل عن رأيه فيه ، وأصبحت البلد مهددة بخطر عظيم . . وأرى ضرورة سرعة التعجيل بقتله . .

القاضى : أنا المسئول عن الحكم أيها الوزير ! . ويجب أن لا أخضع لأى تأثير . . ولا شك أن خوارق منصور هى التى جعلت الخليفة يغير رأيه . .

الوزير حامد : أتريد أن تسمى هذا السحر معجزة وكرامة ؟ !

القاضى : أياً كان الأمر . . ليس هناك ما يكفى الآن لإصدار الحكم . . وهو لم يعترف بعد ، ولا يمكن أن نبنى الحكم على تأويل وتخريق ! .

الجنيد : العلماء يردون كلام منصور عليه . .

القاضى : لكن لابد أن تكون الحجج قوية وكافية ! .

عثمان المكى : وينبغى أولا أن نسمع شهادة الشهود ، ثم نستنبط الذرائع من أسفاره وكتبه الموجودة بين أيدينا ، ونستخرج ما تعارض من كلامه مع الشرع ونأخذه بجرمه ! .

القاضى : فيما بعد . .

عثمان المكى : فيما بعد . . متى أيها القاضى ؟ ! والخليفة والعلماء يدينونه ، وهو أيضا يشهد بكفرانه ، فالجرم الثابت لا يحتاج إلى دليل ! .

الوزير حامد : لا فض فوك يا مكى ! . فلندخل الشهود ونسمع شهادتهم ، لأن الناس يتوافدون عليه فى سجنه كل يوم بالآلاف ، ويسمعون إفكه الذى يصنع فيهم صنيع السحر .

عثمان المكى : فليكن سحراً أو شعوذة أو أى شىء آخر . . نحن لانخشى ذلك . . . لأن زواره من العامة والغوغاء والمرضى والمجاذيب والفقراء والمحتاجين . . .

الوزير حامد : نعم . . لكنه يفتنهم بكراماته ومعجزاته ، ومكانته فى قلوب الناس تزيد يوماً بعد يوم ، حتى أنه نال شهرة وحباً أكثر من خليفة بغداد نفسه ! .

الجنيد : وهذا هو بيت القصيد أيها الوزير ! وهذا هو الجرم الشنيع الذى ينبغى أن يؤخذ به ! .

الوزير حامد وعثمان المكى معاً : هذا صحيح لا ريب ! ،

والخليفة نفسه قد ضاق ذرعاً بما فى شعره وكتبه من إلحاد وشطح فى جلسة أمس !

القاضى : وهذا أيضا لا يكفى لقتله . . .

عثمان المكى : يا سيدى هذا رجل ساحر على صلة بالجن ! . .

الجنيد : وكفى به دليلا ! . .

« يدخل مخبر إلى القاعة »

المخبر «للقاضى » : ثلاثة أشخاص قـدموا من البيضـاء ياسيدى ، ويطلبون السماح بمقابلتك ، أنت والوزير حـامد ، ويقولون إنهم سيقابلون الخليفة نفسه وشيخ الإسلام إن لم يسمح لهم بمقابلتك ! .

القاضى : فلينتظروا قليلاً فى الديوان . .

« ثم يلتفت إلى الحاضرين »

القاضى : ما أغرب ما نـلقى اليوم ! . . ثلاثة من أهل بلدته جاءوا يفتدونه بأرواحهم ! .

الوزير : لا ضير ! . فلنحـضر الشهود وموظفى السـجن المسجونين لاستجوابهم ، لكى يكون الطريق نوراً أمامنا ! .

عثمان المكى : إلى بكتبه ودفاتره ، أقتد منها الأحكام ! .

« يطلب القاضى حـضور الشـهود ، فتمـتلئ القاعـة بهم بين رجال ونساء » .

القاضى : أرجو أن يتفضل الوزير والسادة الحضور فى الحجرة المجاورة حتى يتوفر للقضاء نزاهته فى استجواب الشهود ! .

الوزير : فليكن فيما بعد أيها القاضى ! .

القاضى : كلا ! . فلكى تبرأ ساحة العدل ، لابد أن أستجوب الشهود بمفردى . .

« فاستشاط الوزير غضباً وصاح فى القاضى »

الوزير : اعلم يا أبا عمر أنك أنت المسئول الوحيد عن هذه المهزلة لقد فاض بنا الكيل ! . وعمت الفتنة البلاد فى الحانات ، والساحات والطرقات والمساجد . . وضاعت حرمة الخليفة والوزير وذهبت هيبة الدولة من نفوس العامة !! . .

ماذا تنتظر فى أمر رجل يدعى الألوهية ؟ ! لو مضيت فيما أنت ماض فيه يا أبا عمر ستكون أنت الضحية ! . .

القاضى : خفف من غلوائك أيها الوزير ! . فلن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا . . وأنا لا أنصاع إلا لشرع الله . . .

« يغادر القاضى القاعة ، ويخرج للقاء الثلاثة الغرباء ، القادمين من البيضاء » .

القاضى : تركت أموراً خطيرة من أجل مقابلتكم . . فما خطبكم ؟ !

الرجل الأول : سمعنا أن منصورا الحلاج سيعدم ، وذنبه أنه قال كلمة تخالف الشرع فى الظاهر هى « أنا الحق » ، وهذه الكلمة فى مذهبنا

تعنى أن حقائق الله عـز وجل تتجلى فينا ، لأن «من عرف نفسـه فقد عرف ربه» ، ولربما تجدون فى أشعاره ما يخالف السنة . . ونحن يا سيدى نرجوكم أن تترفقوا به ، لأن له ولداً وزوجا يعلم الله وحده ما بهما من عذاب وبلاء . .

القاضى : أعلم ذلك يا أخى . . وأعلم أيضا أن معه سيدة لها زوج وابن يلقيان نفس المصير . .

الرجل الثـانى : نحن نعـرف زوجهـا . . قابـلناه ونحن فى سبـيل دخولنا لديكم ، وهـو يثنى على منصور ثناءً كبـيراً . . يا سـيدى ! بلدتنا بدون منصور خراب يباب، كل شىء فيها حزين ، كأنها فى مأتم عليه ! . فهو روح بلدتنا وشعره حياتها . .

القاضى : منصور . . إما ساحر ، وإما مجذوب . .

الرجل الثـالث : كـلا يا سـيدى! . بـل هو ولى أطلعـه الله على أسراره . .

القاضى : هل رأيتموه فى سجنه ؟

الرجل الثانى : نعم . . . زرناه . .

« عندئذ يأتى صياح وصراخ من الخارج »

(منصور . . منصور . . أنا الحق)

القاضى : هذا شأن العامة معه . . يعشقونه ! .

الرجل الأول : منصور يا سيدى وهب روحه لله . .

القاضى : يا قوم ! . أنا لست أهلا للاجتهاد . . وليس بوسعى إلا أن أنطق بحكم الشرع . .

الرجل الثالث : يا سيدى ! . العدل هو أعظم ما أمر به الله . .

القاضى : هذا أمر طبيعى يعرفه الجميع ، وأنا أبذل وسعى لأكون عادلاً فى أحكامى . .

الرجل الثالث : غير أنكم يا سيدى تعلمون ، ويعلم معكم الوزير وشيخ الإسلام أنكم تلعبون بالنار ، لأن حال منصور لا يمكن البت فيه عن طريق العقل ! .

« فيثور القاضى ويرفع صوته فى حدة وغضب »

القاضى : لا تغلوا فى كلامكم . . . وإلا لن أسمع لكم ، وورائى أمور جسام ! . « تخرج الهيئة ويدخل الجنيد »

الجنيد : أنت مضطرب ، مشتت الذهن ! .

القاضى : أنا فى غاية التعب والإرهاق . .

الجنيد : كلا . . بل هناك أمر خطير يشغلك !

القاضى : ليس إلا ما نحن فيه . .

الجنيد : لقد أضنانا البحث . . .

« ينظر القاضى إلى ساحة القصر ، ويشرد بذهنه فيما دار بينه وبين الثلاثة القادمين من البيضاء ، فراح يرسم فى مخيلته صورة منصور بوجهه

الشاحب ، وعينيه الحالمتين ، وهيئـته الفريدة الغريبة ، وازدحمت فى رأسه أفكار مفزعة ، ثم نظر إلى الجنيد كمن أفاق من كابوس ، وقال :

القاضى : جنيد أفكر فى تقـديم استقالتى من عمـلى هذا خوفاً من عاقبة هذه القضية المعضلة ! .

« فيقول الجنيد فى دهاء وذكاء ورياء » .

الجنيد : هذا عبث وهوس ! .

القاضى : لمـاذا ياشيخ ؟ ! .

الجنيد : لمـاذا ؟ لأن كلامك غريب بنيته على أحكام فاسدة . . .

القاضى : كلام غريب ! . .

الجنيد : أجل ! . كلام غريب ، وعبث ! ألا تعلم يارجل أنك حين تنهى هذه القضيـة الشائكة ، وتصدر فيهـا حكماً ، ستنال الحظوة والمكانة الساحقة فى بغداد ! وستـصل إلى أعلى منصب فى الخلافة ، وتعيش هانئا تتمتع بالسلطان والجاه . . . أرأيت كيف أن كلامك عبث ؟ !

« يدخل عثمان المكى ، ويشغل نفسه بتقليب صفحات كتاب بين يديه ، ثم يضع الكتاب فى مكانه » .

عثمان المكى :

جاءتنى فكرة ، سنستدرج منصورا ، ونباحثه فى مسألة الإرادة الجزئية والكلية ، وهو لا شك ملحد فيها ، ومن هنا نستطيع أن نـدينه ! .

الجنيد : مرحى . . مرحى يا مكى ! . تلك حقاً مسألة هامة . . من متشابه القرآن . .

« تدوى الصيحات مرة أخرى فى الخارج »

(منصور حق . . منصور حق . . لا تقتلوه . . . لا تقتلوه)

« فيمتقع لون القاضى وينظر إلى الوزير »

القاضى : ولهذا رفضت أن أسمع شهادة الشهود اليوم ! .

الوزير : لدينا من يشهد بغير هذا . . فليحضر منصور الآن ! . .

« يدخل منصور »

القاضى : ما هو اعتقادك فى إرادة الله الكلية والجزئية يا منصور ؟

منصور : اعتقاد أهل السنة . .

القاضى : قل لنا ما هو ؟ !

منصور : قلت ليس لى اعتقاد إلا اعتقاد أهل السنة . . غير أنى أضيف إضافة صغيرة ، وهى أن الإرادة الجزئية عدم ، والإرادة الكلية خلود . .

القاضى : هل تنكر اليوم الآخر ؟

منصور : آمنت بالله ! . .

القاضى : قل ، كيف آمنت ؟

منصور : كما يكون الإيمان يا سيد . .

القاضى : كلامك متناقض ! . .

منصور : اتقوا الله فى دمى ، ولا تهدروه بتأويلكم وتبديلكم . .

الجنيد « لمنصور » : لقد تعبدنا معاً فى خلوتنا يا منصور . . ثم رفضت طريقتى ، وخلعت الخرقة وتجردت ، ونصحتك كثيراً فما انتصحت . . فلتنل عاقبة تمردك وخسرانك . .

منصور : لكنك الآن غيرت شكلك وهيئتك يا جنيد . .

عثمان المكى : يقولون يا منصور إن العوام هوام ! . وهم بعقولهم الساذجة لا طاقة لهم على فهم رموزك وإشاراتك التى كنت تفشوها بينهم . . . . فضلوا بها ولا يُسأل عن هذا الضلال إلا أنت . . وستنال جزاءك . .

منصور : وما جزائى يا مكى ؟ !

عثمان المكى : أتذكر يا منصور يوم لقنتك « باب التوحيد » ذلك الكتاب الفريد الذى ضننت به على كل الناس . . وانتهزت فرصة انشغالى فغافلتنى وسرقته ، ورحت تقرأه على الناس وتنسبه إلى نفسك ؟ . . لكنهم ردوه عليك لأنك لم تفهم معانيه الدقيقة . . فدعوت عليك يومها وقلت « اللهم اقطع يديه ورجليه من خلاف » وها أنت اليوم تستجاب فيك دعوتى . . والله يمهل . . فهيا لتلقى جزاءك . . هيا ! .

منصور : سبحان الله ! . لا يأتى من عند الله إلا الخير يا مكى ! .

« ينهض القاضى من مكانه ، فيبادر الوزير بسؤال منصور »

الوزير : هل تقيم الصلاة يا منصور ؟

منصور : أصلى فى اليوم أربعمائة ركعة .

الوزير : هل تصوم يا منصور ؟

منصور : أنا صائم كل يوم . .

الوزير : ألست تعذب نفسك ، وتكلفها ما لا طاقة لها به ! .

منصور : الوصـول للحبـيب يعنى إذلال النفس اللوامـة ، وازدراء النفــس الأمارة ، وذلك لا يكون إلا بالتقشف والزهد والجهاد ، والرياضة والحيرة والذكـر ، والتنزيه والتوحيد . . والمخلوق لا يتـحد بالخالق أبدا ، والله سبـحانه يهدى من يشاء من عـباده . . أما من عــلى أعينهــم غشاوة فهــم لا يرون شيئا من هذا . . ولو ذقـتم كما ذقنا ، لقلتم كما قلنــا ! . الحيرة يا قوم هى الأسـتاذ الأكبر للإنسان ، والروح هى قربـانها الأخير ، وهى تعشق هـذا الفداء وترى فيـه الكمال والكرامـة وما أقل الأرواح التى تنبت فيها الورود ! .

الوزير : ولهذا أنت تهيم غراما بجلفدان ! . .

منصور : معاذ الله ! . أنا لا أعشق سواه ! .

الوزير : وتحترق فيه ! .

منصور : . . . .

« يدخل القاضى مـسرعاً من الركن الآخـر فى القاعة ، وقـد تملكته الثورة لتدخل الوزير فى استجواب منصور ، فيقول له فى حدة »

القاضى : **أولاً** : من أكبر الخطأ أن تستجوبه دون إذن منى .

ثانياً : واضح تماماً أنك تتحامل عليه لأسباب شخصية ! . .
وإلا . . .

فلماذا تتدخل فى التحقيق معه ؟ ! لابد أن يعلم الخليفة بهذا الأمر ومهمتى أن أنصب ميزان العدل فى هذه الساحة . . .

« فأسقط فى أيديهم جميعا . . ينصرف الجنيد والمكى » .

الوزير : لقد انتهت مهمتك الآن أيها القاضى ! . هيا معى إلى الخليفة . . وسوف أشرح لك الأمر فى الطريق . . وسنأمر الآن بإيداع منصور سجنه ، وعودة الشهود إلى منازلهم اتقاء للفتنة ! .

القاضى : « فى ثورة عارمة »

بل سيواجه الشهود منصورا الآن ! . ولن أمضى معك إلى الخليفة ولا إلى شيخ الإسلام . . وسيستغرق التحقيق طويلا ، فلا تنتظرنى . . وسوف أغادر القاعة إلى بيتى . .

« يمضى الوزير كاسفا مغيظا ، وقد عزم على أن يطلع الخليفة على ما كان . . . ثم يدعو القاضى شهود منصور ليسمع شهادتهم ، فيمتنعون عن الشهادة أول الأمر ، ويتعللون بأنهم لا يعرفون شيئا ، لكنه ظل يحاورهم ويجادلهم حتى واجهوا منصورا . . وبعد أن فرغ من التحقيق ذهب إلى القصر ليطلع الخليفة على نتيجة التحقيق . . . » .

ستار

الفصل الخامس

المشهد الأول

فى الديوان

« فى قصـر الخليفـة المقتدر بالله ، الخليـفة وعن يمينه شـيخ الإسلام المعتـصم بالله ، وبجانبه القـاضى أبو عمر ، وعن يساره الوزير حـامد ، وبجانبه عدد من الوزراء . . يحضر الجلسة جماعة من الشيوخ والعلماء من بينهم الجنيد والمكى وعبد الله بن خفيف ، وجـماعة قدمت من البيضاء بلد منصور »

شيخ الإسلام المعـتصم بالله : تريدون الحكم ! . الحكم سهل ، يستتاب ثلاث مرات ، فإن لم يتب ويستـغفر الله كان له فى الدنيا والآخرة عذاب عظيم . . .

عبد الله بـن خفيف : مهلا يا شـيخ الإسلام ! فنتائج التحقـيقات كلها أسـفرت عن أن الاتهام الموجـه إلى منصور باطل أسـاساً ، لأنه ليس هناك إقرار واضح من منصور أو شهادة الشهـود أو من كتبه يؤكد أنه ملحد كافر . .

الخليفة المقتدر بالله : إذن فما العمل . . يرحمكم الله ؟ ! لقد عمت الفتنة بغداد وكل البـلاد . . هل يعجز الخليفة والوزراء ، والعلمـاء والشيوخ عن حل هذه المشكلة ؟ !

الوزير حامد بـن العباس : الحل سهل يا مـولاى . . لكنه يلتوى أحيانا ويستعـصى . . . هذا رجل يدعى الألوهية فى شعره ، وفى حواشى ديوانه أفكار فلسفية تهدم الدين وتفسد العقيدة . . وهذا وحده يكفى . .

رشيد الدين البلخى : هناك ما ينقض كلامك يا سيدى الوزير ، إذ أن كثيراً من القطع الموجودة فى ديوان منصـور منحولة مدسوسة عليه . . . والدليل على ذلك أن الركـة والإمالة همـا السمـة الغالبـة على ديوانه . . ومنصور رجل بليغ ضليع من أهل المعرفة والكشف ودرويش كامل . . ولا يصل شـعر أهل الذوق أبداً إلى هذا الدرك . . منصـور يرى كل شىء فى أعلى سمـته وبهـاه فكيف يصدر عنه الكفـر والإلحاد ؟ - لكنكم جـميـعا أجمعتم على إعدامه وتريدون إحكام حبل المشنقة . . . فأين الدليل ؟

نـورى : يكفى خطه

رشيد الدين البلخى : مـزيف . .

عثـمان المكى : كل هذا كلام صـحيح . . وأنا أعـرف أن منصورا رجل مغرور متغرطس يحمل رأساً عنيدة .

الوزير : وسيدفع رأسه فى هذا الطريق . .

نـورى : نعم . . سيـخسر رأسـه فى هذا الطريق . ولسنا نشك فى أنه عالم من العلمـاء ، وعارف من العارفين وإن كان لم يدخـل مدرسة أو يُعيَّن فى منصب المدرس أو المفتى ، لأنه لا يصلح لأى منهما ، فمضى فى طريق الوجد والعشق ليصل إلى اللـه . . . لكنه ضل ولـم يبلغ شيئا مما أراد

فعاش يضرب على غير هدى ، فادعى أن الله يحل به ، ولجأ إلى السحر فسحر الناس ، فمنهم من صدقه ، ومنهم من أنكره . . . وكفى بالسحر حجة دامغة تدمغه ! .

الوزير : نعم . . نعم . . فالجرم ثابت ، فضلا عن اعترافه به فى جهارة وصراحة . **الشبلى** :

اعترافه من كمال عشقه يا سيد . . . **أبو عثمان** :

ما سمعنا أحداً من الأنبياء قال كما قال يا شبلى ! .

الخليفة : منصور لا يعترف بكفره ، بل هو كل مرة يكرر أنه مؤمن ، وكنت أريد فى المحاكمة السابقة أن أبيح دمه ، غير أن القاضى أبا عمر أبطل ما كنت أنوى . . ثم يدعى أبو عمر أن الوزير حامد بن العباس يرهبه ويرغبه بشتى الحيل كى يحكم بإعدام منصور ، ويدعى أيضا ، أن شهادة المكى والجنيد لا تصح لأنهما يحملان فى قلبيهما حقداً قديماً على منصور لأسباب شخصية . . ثم يدعى أن الهيئة التى تحاكم منصورا تتبع الهوى ولا تصلح لإنفاذ شرع الله وأحكامه . . ويقول إن وزيرى حامد بن العباس يكره منصور كراهية شديدة لأنه بسحر كلامه قد جعل سيدة مجهولة يعشقها حامد ، تهيم فى الله حبا . . فتركته يكتوى نار حبها ، ولذلك يحاول حامد إعدام منصور لتخلص له هذه السيدة . . فماذا ترون فى هذا الأمر ؟ !

نورى : مادام الأمر هكذا ، فسيكون الحكم باطلاً ! . .

عثمان المكى : يا مولاى . . لقد أصدر المفتـى فتواه فى حضرتكم وقرأتموها ، وليس فى الأمر خصومه أو موجدة قديمة . .

« يتظاهر الخليفة بأنه لا يسمع كلامه »

الخليفة : بغض النظر عن الخصومة . . ماذا تقولون فى رجل اختفى من السجن فى يوم ، وفى اليوم الثانى ظهر هو واختفى السجن بمن فيه . . أليست هذه كـرامة ؟ ! أنا ما رأيته يفـسد فى الأرض ، وما شهـدت عليه باطلا . . ولهذا فإننى أرى أن أطلق سراحه ليعود مع أهل بلدته الذين جاء وا يطلبونه . .

أحد الوزراء : كـيف يا مولاى ؟ ! مـا يقال عن عـلاقـة حامـد بالسيـدة ، من وشايات وأوهام العـوام . . والوزيـر حامـد لايهـدف من استعجاله إصدر الحـكم إلا اسـتتباب الأمن فى البلاد . . وقطع دابر الفتنة التى استشرت فى بغداد وما حولها من أقاليم . .

الوزير حـامد بن العـباس : يا مولاى هذا رجل مـفسـد ، ينشر الفســاد بين الناس ، يقول لهم «أنا الحق» ويضللهم فيـقول « أنا لا أتمسك بشىء من السنة » ، ولقـد قرأت عليكم من أشـعاره ما رأيتم فـيه فلسـفة إلحادية وخروجا عن القـرآن والسـنـة . .

ترابى : حاشاه يا ابن العباس ! . .

عيـاض البـخارى : ليس كل من هنا يؤمن بكلامك يا حـامد . . ونخشى أن ترمينا أيضاً بالكفر ! .

الوزير حامد بن العباس : أريد أن أفصل لكم شيئا آخر : هذه السيدة التى تسمى «جلفدان» سيدة مجذوبة مجنونة ترافق الجن والعفاريت . . وفى الأيام الأولى للقبض على منصور والتحقيق معه ، جاء من أخبرنى أن جلفدان كانت تتزوج رجلا يدعى « خليل » وأنها أنجبت منه طفلاً صغيراً ، لكنها قابلت رجلاً مجنوناً يدعى « منصور » أضلها وأغواها ، فهجرت زوجها وبيتها وخرجت هائمة على وجهها . . وكان ابن والى تبريز يحبها فلما صار حالها هكذا ضل فى الجبال ستة أشهر وعاد مجذوباً مجنوناً . . ألا فاعلموا أن هذه السيدة يربطها بمنصور غرام قوى ، ولذلك تتبعه ، وهى الآن محبوسة فى بيت الإمام مع أشباحها وعفاريتها ، إنها سيدة مجنونة .

الخليفة المقتدر بالله : أنا أعلم ما ترمى إليه يا حامد . . . لكن لا ينبغى أن نكثر الجدل فى هذه المسألة ، والمهم هو ماذا تعنى بقولك أن منصوراً يهدد المملكة كلها ؟ !

الوزير حامد : معلوم يا مولاى أننى أبغى صلاح الدين والدولة ، ومنصور اليوم سلطان بلا ملك ، وقد يأتى يوم يحكم فيه بغداد فينتقم منا ويطيح برقابنا .

الخليفة : ما هذا اللغو يا حامد ؟ !

الوزير حامد : يا مولاى . . كل الأرواح والعفاريت عبيد له . . وله من القدرة على أن يقول للشىء كن فيكون ، وكل من يخالفه فيما يريد يقتله . . .

« يدخل حارس وبواب . . . يعلن الحارس أن الجماعة القادمة من البيضاء تريد مقابلة الخليفة . . فيأمر الخليفة بدخولهم عليه ، فيدخلون يضعون أيديهم اليمنى فوق صدورهم »

الرجل الأول : سمعنا أن الخليفة - أيده الله - سيصدر أمراً بالعفو عن منصور ، ويرده معنا إلى بلدته . . .

الرجل الثانى : منصور يا مولاى عارف أسكرته خمر القدرة ، وعاشق انقطع إلى الله . . فى قلبه مواجيد وأشواق لا تنفد ، وهو فى عشقه من الصادقين . . تستعر نار الوجد فى قلبه فتحرقه ، وتتجلى له لوامع اللطف الخفى فتأخذه من نفسه وتغيبه فيجن ويخلع العذار ويكشف الأستار . . . فيصرخ ويصيح ، ويبكى ويضحك ! وكلام العشاق يطوى ولا يحكى . . . ونحن نشكر لكم يا مولاى عظيم فضلكم لتفهمكم حقيقة حاله . .

الخليفة المقتدر بالله : هل تحبون منصورا إلى هذا الحد ؟ !

الرجل الثالث : هو أفضل الناس والمخلوقات . . نوره من نور الله ، وبجنبيه أسرار القدرة والمعنى ، اتحد بخالقه فوهبه خلوده ، وهو فوق الزمان والمكان ، وهو سر « أنا الحق » .

الخليفة : أرى فى كلامك فضولا يا رجل ! !

الرجل الثالث : كلا يا مولاى . . . هو حفيد زرادشت وخليفته الوحيد . . وعفوكم عنه فيه خير وصلاح للدولة . . وقطرة واحدة من دمه ، تكفى لتدمير بغداد كلها . . واعلم يا مولاى أن البلاد كلها تضج

بالشكوى من الظلم والعسف وجبروت الولاة . . والناس جـميعا فى ضيق وضنك ينتظرون عالماً أفضل ، ونحن لن نبرح الأرض حتى تصدروا الأمر بالعفو عن منصور وجلفدان .

الخليفة : من أبلغكم نبأ عفوى عن منصور ؟ !

الرجل الأول : « منصـور يـا مـولاى . . كـنـا أمس نــزوره فى السـجن ، فقال لـنــا : « ها قد حان خلاصى ، سأبلغ مـرامى ، وتنتهى حيرتى ! »

« شـيخ الإسلام يـنظر إلى الأرض كى لا يظهـر التأثر فى عـينيـه ، ويهمهم بصوت خفيض كى لا يظهر الارتعاش فى صوته » .

الخليفة : ياقوم ! . . لازلنا بصدد إصدار حكم فى قـضية حسين بن منصـورالحلاج ، ولـم نفرغ منه بعـد . . وليس مـا يدعـو لانتظاركم لأنه لامكان لكم ، وقد يتأخر الحكم مدة مـن الزمن ، فتفضلوا أنتم عودوا إلى بلادكم . . وطبيعى سنطلق سراح السيدة . .

« تخرج الجماعة »

الوزير حامد بن العباس « للخليفة » : أرأيت يا مولاى كيف كان كلامى صادقاً صائباً ؟ !

الخليفة المقتدر بالله : « يقف الخليفة ممتقع اللون ويتمتم » : ينبغى أن نؤجل إصدار الحكم غدا . . إنى ذاهب الآن إلى السجن ، لأطَّـلع على

حال منصور بنفسى ، وسوف أصلى الليلة صلاة الاستخارة .

الحاضرون :

بنفسك يا مولانا ؟ !

« يخرجون »

المشهد الثانى

« هى ليلة يطيب فيها العشـق . . زهور الخشخاش التى تتراقص على شواطىء دجلة ، ونجوم الليل التى ترقب النهار ، وبغـداد الساجية الحالمة . . ومياه دجلة التى تغـازلها أضواء النجوم ، وتغـمر وجهها بقـبلات حارة ، فتتـأبى المياه وتتوارى تحت ظلال الأشجار والصـخور . . بينا تظل الأضواء ترقبهـا ! . فيا لله ! ماء رقراق وسكون وعـشق ! . فى هذا الجو يجلس منصور وجلفدان تحت نخلة . . »

منصور : فتحت البراعم ثغورها الحمراء

فكأنما الدنيا خيال ينعكس فوق المـاء

فلـم النوم والموت يا جلفدان . ؟

أيدرك الكرى العالم النشوان ؟ .

النهر مستغرق حيران . .

والبراعم تتراقص فى الأغصان . .

والأضواء والآفاق الحالمة . .

وقصائد الغزل والنسائم العطرة . .

هى بهجة الدنيا الفاتنة . .

فتأملى النور السكران . .

واسمعى صوت السكون الولهان .

تلك ليلة للعشق لن تعود . .

ومع الفجر أودعك وتنقضى العهود . .

يوحى إلى الليل والمـاء والسكون

بالألم والخذلان . .

رجاء أن أراك فى الجنان ! .

تنعمين بالحلى والمرجان . . .

تلك ليلة للعشق لن تعود . . .

ومع الفجر أودعك وتنقضى العهود . .

جلفدان : أى كلام هذا يا منصور . . أى كلام ؟ !

أنا لن أفارقك يوماً من الأيام . . .

أنت حزين يا منصور . . حيران ! .

وأنينك بلغ عرش الرحمن ! .

أيكون اليوم مهداً للكون يا منصور ؟ !

أو هل تحترق بالمـاء الطيور ؟ !

خرجت بالليل بين الرياض وحدى . .

فأحسست بشوقى ووجدى . .

ورق قلبى لغصن مكسور . .

أنت هذا الغصن يا منصور ! .

فأى كلام هذا يا منصور . . أى كلام ؟ !

أنا لن أفارقك يوماً من الأيام . . .

أنت حزين يا منصور . . حيران ! .

وأنينك بلغ عرش الرحمن ! .

« يرفع منصور وجهه نحو السماء ، يرقب ملك الشفق وهو يتهيأ للرحيل » .

« ومع الفجر يأتى الوزير حامد بن العباس إلى السجن ، وبعد مدة يأتى الخليفة المقتدر بالله » .

كبير السجانين « بحدة » : ما هذه المخاريق التى تفعلها أيها السجين ؟ ! بعد منتصف الليل أرسلت حارسين إلى حجرتك ، حاولا فتح الباب فما انفتح ، ولم يقفا لك على أثر . . ثم أرسلت رجلين آخرين قبل الفجر لكنهما عادا يقولان إنهما يسمعان أصواتا غريبة مخيفة . . فأمرت بجلدهم جميعا . .

منصور : كنت أحس بحيرة واجفة وأنا فى هذا الركن الضيق . . وحير عقلى سؤال : ترى لماذا طلب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله فى معراجه أن يصطفى فريقاً من أمته ويترك باقى الأمة ؟ فإذا بالرسول يأتينى فى صورته البشرية ويقول لى «قلوبنا يا منصور هى عرش الرب ، وتلك مشيئته ، ومشيئتنا أيضا ، ولو كان الله يريد الأمة كلها ، لطلبناها ، لكنه أراد الصفوة التى لا يتسع قلبها لغير الله ، ولذلك كنت متواجداً

غائبا عن نفسى ، أخاطب أصواتا علوية . . وقبل أن يتركنى رسول الله كنت أردد معه (اللهم اجعل روح عاشقك تحلق فى سمائك ، لتتحقق من غرامك . .) ، ولم يحدث غير هذا . . رسول الله لا يريد الغافلين النائمين ! . وأنا يا هذا لم أزعج أحدًا بحركتى . . . . . .

كبير السجانين : انهض . . وهيا معى . . فهناك بالباب عدد من النسوة ورجلان ينتظرونك . . كما جاء حامد لمقابلتك . .

منصور : هيا . . .

« فى حجرة خاصة فى القسم الخارجى من السجن يقف الوزير حامد منتظراً . . يدخل منصور ناحل الجسم ، شاحب الوجه . . ثم يدخل القاضى أبو عمر » .

الوزير حامد بن العباس : منصور ! جاءت أمس جماعة من «البيضاء» وقابلوا القاضى وشيخ الإسلام ، وقابلونى أنا والخليفة المقتدر . . ورجونا أن نطلق سراحك من أجل زوجك المسكينة وولدك « مغيث » الصغير . . . فاعدل عن كلامك وثب إلى رشدك . . . واقطع علاقتك بجلفدان . . . أنا سأطلق سراحها وأجعلها تعود إلى بيتها وطفلها مع تلك الجماعة ، أما أنت فلا . . . لأن جرمك ثابت والبراهين عليه كثيرة فى كتبك وشعرك . . وكل برهان منها يكفى لإعدامك . . .

منصور : لكل شىء نهاية إلا العشق فلا نهاية له . . لأن خلود المعشوق يمنح العاشق الخلود . .

الوزير حامد : عنادك يقودك إلى النار ! .

منصور : أنا أحترق فى نار العشق ، وأركض فى حديقة اللهيب من الأزل ، ويجمعنى والعنقاء عش واحد . .

الوزير حامد : يا للهوس ! هذه الخرافات هى التى ذهبت بعقلك ! فلماذا تركتك العنقاء وحيداً ، سنحضرها ونسألها !

منصور : الصورة تتلاشى عند الوصول . . أنتم غدا ستخلصوننى وتتحفوننى تحفة العشق المكنونة .

الوزير حامد : كيف عرفت هذا ! ؟ ومن أين ؟ !

منصور : أنتم الليلة تنظرون فى النجوم ، وتصلون الاستخارة ، وأنا رأيت أمس فى صفحة السماء أنى بلغت مقام الوصول .

الوزير حامد : ونحن ننتظر صدق النبوءة ! . . . .

منصور : هذا غيب ، قد يطلع الإنسان عليه أحدُ ملائكة اللوح المحفوظ ، أو يطلع هو عليه بقدرته ، ونحن نسمى أصحاب هذه الحال « أهل الرؤية » وتسمونها أنتم « الفأل » . . لا عليك ! . . فالمهم أننى صعدت إلى سماء الفأل وقابلت الملائكة المكلفين ، ثم إننى استخرت فى الليل ، ورأيت أننى بلغت مقام الوصول . .

الوزير حامد : هذه أوهام . . ويبدو أن عشقك للسيدة الفاتنة قد سلبك عقلك ! .

منصور : نعم . . طرت بالعشق إلى الحبيب ، ووصلت إليه . .

الوزير حامد : أنت واهم مجنون . . .

منصور : أولست أنت الآخر تحيا فى وهم وبطلان ؟ !

الوزير حامد : نحن نسمى المتعلقين بالخيال من أمثالك سحرة ومشعوذين . .

منصور : كلا . . . كلا ! .

الوزير حامد : إذن ، فماذا تسمى هروبك من سجن محكم ، بابه من حديد وعليه حراس غلاظ شداد ؟ ! كيف تخرج من سجنك ولا يراك أحد ، ثم تنزل الأسواق وتمشى فى الطرقات ، وتعظ الناس فى المساجد ؟ كيف . . كيف ؟ !! أليس هذا هو السحر أم هل كان الحراس يساعدونك على الهرب ؟ ! لقد شاهدك الناس أمس تمشى فى سوق العطار !! . . أليس هذا هو السحر ؟ !

منصور : حاشا لله ! . .

الوزير حامد : والمسجونون المحبوسون كل فى حجرة بمفرده . . كيف كنت تجمعهم جميعا حولك ؟ !!

منصور : حاشا لله ! . . هذا إثم . .

الوزير حامد : لا . . بل هو سر يجعلك تحلق مع جلفدان فى السماء ! .

منصور : معاذ الله ! قلت لك أنا لا أعشق غير الحق !

« يدخل الحارس ويقود منصور إلى حجرة القاضى »

القاضى أبو عمر : منصور ! . إن لم يكن أحد من حراس السجن قد أطلق سراحك ، فهل أخرجتك الجن ؟ !

منصور : كلا . . بل خرجت بنفسى . .

القاضى : من أين ، وكيف ؟

منصور : من الباب . .

القاضى : هل كان الحراس نائمين ؟ !

منصور : الحراس لا ينامون . .

القاضى : هل كانت الأبواب مفتوحة ؟ !

منصور : بل فتحتها أنا . .

القاضى : أمعك مفتاح . . أم خاتم سليمان ؟ !

منصور : حاشا لله ! . .

القاضى : أجيبوا أنتم أيها السجانون . .

السجانون : نحن لا نغفل برهة، ولا نترك مواقعنا، لكنا ما رأيناه !

منصور : صدقتم . .

القاضى : « مخاطبا رجلا وامرأة من الشهود » . . وأنتما ؟ !

الشهود : رأيناه . .

القاضى : متى . . وكيف ؟ !

أربعة من الشهود : رأيناه ليلة أمس مع جلفدان تحت نخلة على

شاطىء دجلة . .

القاضى : كلامكم باطل ولا يخلو من غرض وحقد ! .

« يدخل الوزير »

الوزير حامد بن العباس : كلا . . فمنصور يشهد بذلك

« فلا يهتم القاضى أبو عمر بكلام الوزير كأن لم يسمع شيئا »

القاضى « للسجانين المحبوسين » : وأنتم ماذا رأيتم ؟

السجانون المحبوسون : « ينظرون فى حيرة » . . . . !!

القاضى « للشهود الأربعة » : هل كنتم على مقربة من منصور وجلفدان ؟

الشهود الأربعة : كلا يا سيدى ! . . بل كنا بعيدين . . . .

القاضى : تقولون إنهما التقيا بالليل قبل الفجر ، فكيف استطعتم معرفة شخصيهما فى الظلام ، وأنتم بعيدون ؟ !

الشهود الأربعة : لقد رأيناه أولا ، ثم رأينا جلفدان من مكان قريب . . كنا جلوساً فى الناحية الأخرى من الساحل ، فسمعنا منصورا يقول كلمات غزل مثل «العشق . . السماء . . الأرجوان . . .» فعلمنا أن التى معه سيدة يعشقها ، ودفعنا الفضول إلى الاقتراب منهما وتتبعهما . . .

القاضى : هذا كلام فيه فجور وحقد ! . .

الوزير حامد : كلا . . فمنصور يشهد بذلك . .

القاضى : سبق لك أيها الوزير أن حكمت على هذا الرجل بالكفر ،

وأخذت تتسـقط كلامه المبهم لتـحكم بقتله ، فدعنى معـه حتى يستقـيم ميزان العدل ! . .

الوزير : هو كافر مفسد . .

« يخرج الوزير مغاضبا »

منصور : عرف الحق الحق ، فأصبح هو هو . . أنا راض بما تحكمون به . . وسوف ينفذ غدا ، ولست أرى ما يدعو لهذا التحقيق العقيم . .

القاضى : هذا وهم وخيـال يا منصور ! . . من أنـبأك هذا ؟ ! لم يصدر أى حكم بشأنك حتى الآن . .

منصور : هذا الحكم صدر منذ زمان بعيد وأنا أعلمه . .

القاضى : كيف ، ومتى يا منصور ؟

منصور : يوم غصت فى بحر البلاء . .

« يلتبس الأمر على القـاضى فيغادر القاعة ، ويقـتاد الحراس منصورا إلى سـجنه ، وينصـرف الشـهود والحـضـور كل إلى شـأنه . . . وتغلـق الأبواب » .

المشهد الثالث

« السجن . . . البهو . . إيوان السياسة فى « باب التقى » .

(مناقشات بين المسجونين فى ساحة السجن ، بينا تمضى جماعة منهم إلى منصور فى محاولة لإضعاف عزيمته) .

سجين « لمنصور » : فكر جيداً يا منصور . . الحق وجود ، وأنت عدم أنت مجنون يا منصور ! .

منصور : كلا . . أنا لا يدركنى الفناء . . .

سجين آخر : وهل فى السجن إلا الفناء ؟ !

منصور : أنا ليس لى سجن يا أخى . .

سجين ثالث : ها . . ها . . لعلك تظن قضبان الحديد والجدران والأبواب الغليظة المغلقة رياض الجنة !! أو لعلك تحسب السجانين الغلاظ الشداد حورا وغلمانا !! .

منصور : كل مكان لى جنة ، وكل إنسان أراه ملكاً كريماً . .

سجين آخر : لكن ليس هنا يا منصور . .

منصور : أيها المسجونون ! هل تريدون أن أطلق سراحكم ؟ !

جميعا فى صوت واحد : أطلقنا يا مولانا ، يرحمك الله ! . .

منصور : إن شاء الله . .

« يدق منصور الأرض بإحدى قدميه ، فتنفك أغلالهم وقيودهم . . . فيصعقون من الدهشة »

جميعا فى صوت واحد :

لكن الأبواب مغلقة يا مولانا ! .

منصور : سأفتحها إن شاء الله . .

« يشير منصور إلى الأبواب ثلاث مرات ، ثم ينفث فى يديه سبع مرات فتنفتح الأبواب ، فينقلب المسجونون على قدم منصور يقبلونها »

جميعا فى صوت واحد : هيا اهرب معنا . .

منصور : لى مع خالقى سر . . فانطلقوا أنتم . .

« فينطلقون جميعا ، وعددهم ستمائة . . وينتبه الحراس والسجانون ليجدوا السجن خالياً إلا من منصور »

كبير السجانين لمنصور : أين المسجونون يا منصور ؟ !!

منصور : أطلقت سراحهم . .

كبير السجانين : ولماذا لم تهرب معهم ؟ .

منصور : لى مع ربى سر ، وموعد ألقاه ها هنا . .

« فصعق السجانون والحراس من الدهشة ، وأبلغوا النبأ على الفور إلى الوزير والخليفة ، فتملك الخوف الخليفة ، وبلغت الحيرة به مبلغها ، فأصدر أمره إلى الوزير حامد بالتحرك العاجل لاستئصال الفتنة ، وانطلق مع وزيره إلى السجن . . وقبل الصباح نقل منصور فى سلاسله إلى الإيوان . . واجتمع مجلس طارىء من المسئولين »

الخليفة المقتدر بالله « لمنصور » : أنت زنديق . . أنت ملحد . .

أنت مفسد ! ولابد من قتلك ! . .

منصور : أعرف ذلك ، وأقول « أنا الحق » .

شيخ الإسلام : فسّر يا منصور : من هو الحق ؟ . . وكيف الطريق إليه ؟ !

منصور : هذا سر واضح . . نحن نسعى إلى الله على قدمين : قدم تسعى نحو الدنيا ، وقدم تسعى نحو الآخرة . .

شيخ الإسلام : ما الفقر ؟

منصور : الفقر هو الاستغناء . . أن تستغنى عن كل شىء ما عدا الله ، هو فى الدنيا : الزهد فى النفس ، وفى الآخرة : الزهد فى القلب ، أما هو فهو الزهد فى الزهد . .

شيخ الإسلام : ما الإخلاص ؟

منصور : الإخلاص يعنى أن تذوب نفس المرء فى أفعاله ، فلا يعرف الشرك أو الرياء . .

شيخ الإسلام : ما الوقت ؟ وهل للعارف أوقات ؟ !

منصور : ليس للعارف وقت ؛ لأنه لو كان له وقت ، لصارت له صفة وليس للعارف صفة . .

شيخ الإسلام : ما الهداية ؟ !

منصور : هى التجلى الذى يفجر السر ، فيمنح العبد الخلود ،

العارف يأتيه الوحى من السماء ، فلا يصبح فى قلبه مكان لغير الله ، ولذلك فهو لا يهتم بجفاء الناس له . .

شيخ الإسلام : ما العشق ؟

منصور : للعشق سبعة مقامات ، بعدها يطوى العاشق ثلاث مراحل هى : اليوم والغد وما بينهما . . فى الأولى يُشنق ، وفى الثانية يُحرق ، وفى الثالثة يُحلِّق فى السماء .

شيخ الإسلام : أحكم الآن وأنا مطمئن أنك ملحد ، أولاً : لخروجك عن الشرع ، وثانياً : لإثارتك الفتنة ، وثالثاً : كشفك ستر الله . . نعم ، نحن نعرف أن للشبلى نفس العقيدة ، لكنه مجنون ، وللجنيد أيضا نفس العقيدة ، لكنه تاب وأناب . . فتب واستغفر الله ، وقل « هو الحق » ننجيك ببدنك . . .

منصور : من يطلب الواحد لابد أن يموت واحداً . .

شيخ الإسلام : هذا ظلم . .

منصور : الظلم هو عدل الله . .

الخليفة المقتدر : أنت تظلم نفسك يا منصور . .

منصور : بل أكرمها يا سيد ، وهذا عندى هو الإخلاص فى العشق . .

الوزير حامد : « يقول حامد ظناً منه أن منصور يعنى جلفدان فى كلامه » ،

لكن حبيبتك عادت إلى زوجها !

منصور : سبحان الله . . « أنا الحق » يا رجل . .

الوزير حامد : « متجهاً إلى هيئة المحكمة »

ولذلك يختلف فيه الناس ! .

أبو على الفرمدى : هذا رجل يقدره أهل التوحيد . .

« يمضى الوزير إلى حجرة القاضى يستحثه فى ضرورة إصدار الحكم اليوم ، بناء على أوامر الخليفة والمجلس الطارىء المنعقد فيجيبه القاضى فى نبرة حادة »

القاضى أبو عمر « للوزير » : لن أصدر الحكم استناداً على براهين مشوشة وحجج داحضة . أنتم تريدون قتله لأسباب سياسية ، يا طالما حاربت هذا الرجل ، وحقدت عليه ، وجعلته يمثل أمامك مكبلاً فى قيوده عدة مرات ، وحققت معه كثيراً حتى فى سجنه ، لكن محاولاتك كانت تذهب أدراجا ! إن كان الأمر سياسياً فأنا لن أمضى معكم فيما أنتم عازمون ، لأنى فقيه وعالم شرع فقط . .

« يدخل منصور ، ويدخل بعده عالمان . . ثم يدخل الوزير فيجلس يقلب فى كتب منصور ، ويخاطب القاضى أبا عمر » .

الوزير حامد للقاضى : هذا كتاب من كتب منصور الحلاج ، اقرأه وناقشه فيما جاء فيه . .

« يأخذ القاضى الكتاب يقلب فيه ، ثم ينظر إلى منصور » .

منصور : نعم . . هذا الكتاب من تأليفى . .

الوزير حامد : اقرأ ما فيه يا أبا عمر ! . .

« يقرأ من الكتاب »

(إذا أراد أحدكم الحج ولم يكن فى وسعه الذهاب إلى مكة ، فليعمد إلى مكان نظيف فى بيته ، ويطوف حوله وقت الطواف ، فإذا رجع الحجيج من مكة قام بإطعام ثلاثين مسكينا من أوسط ما يطعم ، وكسوتهم ، ثم يمنح كل واحد منهم عشرة دراهم . . فإن فعل ذلك ، كانت له حجة . .)

« يقرأ الوزير هذا الكلام بصوت مرتفع ، بينا تظهر علامات الغضب على وجه القاضى أبى عمر ، الذى يبلغ به الضيق مبلغاً عظيماً فيصيح فى منصور » .

القاضى : منصور ! من أين لك هذا الكلام ؟ !

منصور : من كتاب للحسن البصرى . .

القاضى : أى كتاب للبصرى ؟ !

منصور : من كتاب « هبة الحقائق » . .

القاضى : كذبت ! يا حلال الدم ! . قرأنا هذا الكتاب فى مكة وفسره لنا عبد الله المرزوق ، فما وجدنا فيه شيئا من هذا ! . .

منصور : . . . .

« يقاد منصور للخارج ، فيمضى يحجل فى قيوده ، ويعاد إلى سجنه

ويبقى المجلس منعقداً ، أكثر علمائه من الشيعة » .

الوزير حامد للقاضى : ها قد حكمت بكفره وإحلال دمه أمامنا يا أبا عمر . . .

القاضى : قلت هذه الكلمة بلفظها ولم أقصد معناها أيها الوزير ! .

الوزير : أتحكم بكفره ثم تدافع عنه ؟ ! . .

القاضى : أنا لا أخضع لعاطفتى وإنما أخضع للشرع . .

الوزير : أنت تجنى على نفسك يا أبا عمر . . . . . .

القاضى : كيف أيها الوزير ؟ !

الوزير : بل وتعرضها للإهانة . .

القاضى : أعرضها للإهانة ! . .

الوزير : أجل . . لأنك شهدت الآن بكفره . . ومع ذلك لا تريد أن تحكم بإعدامه . . . إذن فأنت شريك له فى هذا الجرم . . .

القاضى : أولا : أنا لم أحكم بكفره . . . ثانيا : لابد للفقيه أن يدقق فى القياس . . .

الوزير : فلتنطق بالحكم الآن ! . . .

القاضى : فليكن قرار إعدامه على أساس متين من الشرع . . .

« ينهضون جميعا فى ضيق . . . ويشعرون بهزة فى القاعة . . يسرع

الوزير مغادراً القاعـة ليخبر الخليفة بأن القاضـى قد حكم بإعدام منصور ، وينتشـر الخبر فى أرجاء بغـداد ، فتوقد المشـاعل والقناديل ، ويطير الجنود والحراس من الطرب والنشوة »

بينا منصـور فى سجنه يناجى الله فى ليلتـه الأخيـرة مناجاة ضـارعة تحملها الريح السواحة :

(اللهم إنى أسألك أن ترحم الساعين فى قتلى . .

اللهم اعف عنهم بحق ناسوتيتى التى أفنيتها فى لاهوتيتك . .

اللهم لا تعذب من عذبنى . .

اللهم اغفر لهم وتب عليهم . .

اللهم جد على العصاة بهدايتك ، ورطب قلوبهم بمحبتك . .

اللهم كن لهم نوراً وفرحاً وسروراً . .

اللهم اجعل الدنيا جنة . . والكون عمرانا . . .)

« وبينا كان منصور مسـتغرقا فى هذه المناجاة ، يدخل الخليفة ومـعيته فيسمعـون دعاءه . . . فيقفون فى ذهول وخشوع أمامـه ، ثم يتقدم الخليفة ويقول له »

الخليفة المقتدر بالله : منصور ! لقد صدر الحكم الليلة بإعدامك . . لكن العلماء لم يوقعـوا عليـه بعـد ، ولم أصـدق عليه أنا الآخـر ، قل يا منصور « هو الحق » نغير الحكم وننجيك ! . . .

منصور : أعلم أن الشيعة وراء هذا الحكم . .

الخليفة : من نبأك هذا يا منصور ؟ . .

منصور : أيها الخليفة ! . قلت لكم إننى أنتظر هذا الموعد وأشتاق إليه من طول زمان ، وكلامى لا يتغير ولا يتبدل . . أأطيع الخلق فى معصية الخالق ؟ !

الخليفة : يا منصور . . بدل كلامك خيراً لك ! . .

منصور : معاذ الله ! . .

الخليفة : أنت تقتل نفسك ! .

منصور : يا للعجب ! . .

الخليفة : سأمضى أنا إلى قصرى . . وأنت إلى مشنقتك ! . .

منصور : مصحوبا بالسلامة ، نجاك الله من الهلاك . .

الخليفة : أى هلاك ؟ ! عصيان الشعب ! . . فساد الأمة ! . . ثورة العلماء والوزراء ! . . أم شر الجن والشياطين ! . .

منصور : سترى عاقبة قتلك للعاشقين وبالا . . ، طاعون ، وفساد ، وجهل ، ومرض ، واحتلال ، وفتن . .

الخليفة : دعك من هذا وفكر فى مصيرك ومصير أسرتك . .

منصور : أسرتى لها خالق يكفلها . . وقلبى ليس فيه متسع لغير الله . .

« يعود الخليفة وسط صياح الديكة المنبعث من فوق المنازل . . . ويشعرون جميعا كأن النجوم والملائكة وكل شىء ينشد « حق . . حق . . أنا الحق » .

منصور : يارب .. لقد أفنيت ناسوتيتى فى لا هوتيتك

فاللهم ارحم من أراقوا دمى برحمتك ..

« ويستمر منصور فى ترديد هذا الدعاء ، وتحمل الريح دعواته فى كل مكان ، يجلس خمسة عشر رجلا فى مقهى بسوق العطار يتحدثون فى الحكم الذى صدر بإعدام منصور » .

شاب : « أنا الحق » كلمة صدق ! .

شيخ كبير : أجل .. فالعاشق يفنى فى المعشوق ..

النادل : بل العاشق قربان للمعشوق !..

شاب أسمر : كان يحب سيدة فى بلدته .. يقولون إنها فاتنة الحسن ..

تاجر : هل كانت فاتنة حقا ؟ !

الشاب الأسمر : أنا ما رأيتها قط .. لكنهم يقولون إنها حسناء ، فتنت زوجها ، وابن والى تبريز ومفتى «البيضاء» ، ومنصورا ، وعليا الحارس ، والجنيد ، والوزير حامد ، والخليفة المقتدر بالله نفسه ! .. وكل من رآها عشقها ، لكنها تأبت عليهم جميعا لأن قلبها معلق بمنصور فقط ...

النادل : إنها عاشقة لله .. ومنصور شيخها ..

الشيخ الكبير : نحن لا نعلم حقيقتها ، لأنه لا يعرف سر المرأة إلا امرأة مثلها ..

النادل : هذا تحامل منك عليها أيها الشيخ ..

شيخ كبير آخر : ما سبب إعدام منصور ؟ ! هو رجل طيب كامل .. وعارف من الواصلين ، ورع زاهد ، يصلى ويصوم ويقرأ القرآن ويحج بيت الله ... لا يمكن أن يكون السبب دينيا ... كل ما فى الأمر هو خشية السلطة على نفسها من سلطانه بين الناس ، وتأثيره البالغ فى نفوس الخاصة والعامة .. فتخلصوا منه كى لا يؤرقهم ..

الشاب الأول : حقا .. السبب الحقيقى هو أن منصورا كان له أتباع ومريدون من شتى الطبقات ، والناس كما تعلم يكرهون السلطة ، والسلطة دائما تحقد على من يلتف حوله الشعب ..

مدرس : مهما كان الأمر .. فالقتل لا ينهى حياة منصور ، سيموت جسمه فقط ، أما اسمه فهو باق على كر الدهور ، وتلك كتبه رغم كل شىء باقية يقرؤها الناس بشوق بالغ .. وهل الخلود إلا أن تذكر بالخير بعد موتك ! .

الشاب الأسمر : أنا أعرف « باب التقى » الذى سيعدم فيه منصور ، فهيا نذهب لنرى ..

« يخرجون جميعاً على أصوات مظاهرة يمشى فيها خلق كثير ، وهم يرددون « أنا الحق » ثم تهب عليهم ريح عطرة فيها أصوات دعوات منصور ... فيقفون جميعا يسمعون فى خوف » .

(يارب .. هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى ، غيرة على دينك ..

فاللهم أعف عنهم واغـفر لهم ولا تحرمهم هداك ورحـمتك .. يارب .. تب على العصاة والمذنبين الغافلين) .

« تمضى الشرطة بمنصور ومعهم الجلادون » .

جمـال : كـان رجلا يخـرج النقود مـن الهواء ، ويفـتح الأبـواب المغلقـة ، ويحيط بخفايا علم الحروف ..

المـدرس : اسكت .. وكـفى حمـاقة .. واسـمع لتلك الريح .. واعلم أن منصورا مستـجاب الدعوة ، وقطرة من فيضه ، تغرقنا جـميعا ، ولو أراد ، لامـتـلك خـزائن السمـوات والأرض ... لكن اسـمع لتلك الريح ... بهذا جـرى القلم ... غدا الثلاثاء الموافق الرابع والعـشرين من ذى القعـدة فى باب التقى سيقـدم الحسين بن منصور الحلاج روحـه قربانا للحبيب وهو غاية الرضا والسعادة ... فيا للقدر ..

رجل مجـهول : يقولون إن سـبب قتله هم جبـاة الخراج من أهل السنة .

حارس : لقد حـلت عليه لعنات ثلاث : لعنة رسـول الله ، ولعنة المكى ، ولعنة الجنيد ..

المـدرس : منصور فـوق كل ما قلت .. منصور وصل إلى مـأموله فقولوا ما شئتم .

النادل : كان يقول « أنا الحق »

الشيخ الكبير : هذه كلمة لا نستطيع نحن تأويلها ..

رجل غريب : « أنا الحق » كلمة صدق . . .

المدرس : أجل كلمة صدق . . ومن قالها صار بالحق حقا .

« يوم الثلاثاء الرابع والعشرون من ذى القعدة . . . بعد صلاة العصر ، يقاد منصور فى أغلاله إلى ميدان السياسة ، وحوله الشرطة والجلادون ، وجموع لا تحصى من عامة الناس . . كلهم ينظرون إليه فى حزن ، وإذا بجلفدان تشق الصفوف وتخر أمامه راكعة تقبل سلاسله وقيوده وهى تبكى وتضرب رأسها فى الأرض » .

جلفدان : سألقاك عند الحبيب يا منصور . . .

وسأحيا بالإيمان والأمل . . سأحيا بالإيمان والأمل . . .

« وتسقط على الأرض ، فينصرف الناس ، ولا يبقى إلا الشرطة وجلفدان . . فينشد منصور » .

المناجاة الأخيرة : بالإيمان وبالأمل يولد يوم جديد . . .

وفى السماء نور لا يغيب . .

هى سيدة أدركت الخلود . . .

بنور القلب والجمال الفريد . . .

هى سيدة خالدة . . هى سيدة خالدة . .

وفى طريق الدم . . وردة ضاحكة . .

هى لحن بجمال الروح والصورة . .

هى قطرة فى الفجر . . الأرض لها منتظرة . .

طرنا إلى السماء سرين

خائفين مرتعشين

فحلقت الشعلة الأبدية فى السماء

لها من دعاء هذه السيدة حداء . .

« تنظر جلفدان مرة أخرى إلى منصور قبل أن يشنق ، فيقول لها منصور » .

منصور : الآن يتحفنى ربى بالكمال ، وسيكتمل الكل الآن ، وسأبلغ الخلود المنشود ، وأصبح بالحق «حقا» وتنشد كل ذرة فى وجودى «أنا الحق» .

جلفدان : ما معنى كلامك ؟ .

منصور : أجل . . . الآن سيرجموننى ، ويقطعون يدى ورجلى من خلاف ، ويسملون عينى ، وسوف أتوضأ بدمى حين يسيل ، وسأقرأ على الناس كتاب العشق من فوق الأعواد . . وسيمزق جسمى إربا إربا ، وستنشد ذراتى « أنا الحق » ثم يحرقوننى بالنار ، ويطير رمادى فى السماء وهو يردد « أنا الحق » ثم يهبط فى دجلة ، فيثور ماؤه ، فخذى خرقتى يا جلفدان ، وضعيها فوق ماء دجلة فيغيض . . حتى لا تغرق بغداد ويهلك الناس . . فلا أريد أن أكون سبباً فى أقل ضرر يصيب هذه البلاد .

وأوصيكم بترديد قولى . . .

« تمضى جلفدان ويرفع منصور فوق الأعواد ، ويجتمع الناس يرجمونه بالأحجار . . كان الشبلى من بين الراجمين ، فأخذ وردة وقذفه بها » .

الشبلى : حبيبى ! . أو لم ننهك عن العالمين . .

منصور : يا شبلى أنـت لم تبلغ هذا المقام بعـد . . آه يا شبلى ! . لقد أوجعتنى بوردتك وجعا لم أشعر به وأنا أجلد وأعذب وأرجم ! .

الشبلى : كيف والناس يرجمونك يا منصور ؟ !

منصور : يا شبلى . . هؤلاء من العوام ، لا يعرفـون شيئا ، وأنى أسأل الله أن يغفر لهم . . أما أنت فتعرف حقيقة أمرى ! لقد قطعت أملى يا شبلى فى آخر لحظة من عمرى فى وجود إنسـانية بين الناس . . فيا أسفا . . سأرحل عن الدنيا مقطوع الأمل فى الإنسانية ! . .

« يجـهز الجلادون المشـنقة ، بينا تقف جلفـدان والشبلى والجنـيد ، وعدد من أهل بلدة منصور وعبـد الله بن خفيف ، وأبو الوفا . . ينظرون إليه والحسرة تمزق نياط قلوبهم يودون جميعا لو ذاقو الموت قبل تنفيذ الحكم فيـه . . لكنهم يرون نوراً يخرج منه فـيملأ جـهات السمـاء كلها . . وإذا بصوت يهز الساحة . . » .

صوت من السماء

تخلصت يا منصور من دار الظلم والآلام

فقل « أنـا الحـق » وادخل الجنة بسلام ! .

ســـــتـــار

تذييل

فى سنة ١٩٤٤ أصدر الشاعر التركى «صالح زكى أقطاى»[1] ، مسرحية فى خمسة فصول ، بعنوان « مأساة منصور الحلاج » ، اجتهد الشاعر أن ينظمها كلها شعراً ، لكنه أخفق ، لشدة تمسكه بالأحداث التاريخية واضطراره إلى التضمين من كلام الحلاج المنثور ، فغلب النثر على الفصلين الأخيرين منها . ويمكن تلخيص مسرحية «أقطاى» بإيجاز على ذلك النحو .

« فى وقت السحر ، وفى موضع يقال له البيضاء بتبريز - يجلس الحسين بن منصور الحلاج ، ناحل الجسم ، فى ملامحه شحوب التأمل والسهر ، مع « جلفدان » سيدة شابة ، أشهى ما تكون حسناً وجمالاً . . يخوض منصور فى حديث شائق رائق عن تجلى جمال كمال الله فى مخلوقاته حتى يكاد يهتف من طربه : « ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فى قلبه » فمس كلامه شغاف قلب جلفدان ، فأضحت له مريدة من أتباعه ، هامت على وجهها فى الأرض شوقاً للوصول مع شيخها ، لكن الشرطة

(١) ولد صالح زكى أقطاى فى شرقيقرة اغاج ، من أعمال اسبرطة سنة ١٨٩٦ ، واشتغل بالتدريس فى كثير من مدارس إستانبول ، وتوفى فى ٢٢ مارس سنة ١٩٧١ .. كان صالح زكى ينشر شعره فى عديد من المجلات ، منها «الوطن التركى» ، «المجلة الجديدة» ، «اجتهاد» ، ويؤثر دائما غرض الهجاء ، كما كان يستلهم فلسفة اليونان وأساطيرها فى شعره . وكان يعتمد على الألفاظ ذات الجرس الموسيقى المتناغم . ومن أهم دواوينه : « أغانى آسيا Asyasarkilari والينبوع Piner والريح Ruzgar » .

Surkan Kurdakul : Cagdas Türk Edebiyatl, Istanbul, May Yayinlarl, 1976, S. 218.

تقبض عليهما وتسلمهما للمـفتي ، فيمسك منصورا ، ويرسل جلفدان إلى بيتهـا مع زوجها وولدها بعد توبـيخها وتحذيرها . . وفى الـبيت ، يحاول الزوج جاهداً أن يثنـيها عن هذا الطريق الشـائك الذى تمضى فيـه ، لكنها جعلت كلامه دبـر أذنيها ، وما راعها بكاء ولدها الذى لم يجـاوز الخامسة من عمره وعـقدت العزم على أن تخرج فى سيـاحة إلى الله ، لكى تصل فى النهاية إلى الله ، كما وعت عن شيخهـا ، وقبل الفجر نفذت ما بيتت النية عليـه .

فلما حار المفـتى فى أمر منصور ، أسلمه للوزير حامـد بن العباس ، الذى استبقـاه عنده مدة من الزمن ، ليقف على حقيـقة أمره . وبعد حين من الزمن ألقت الشرطة القبض على جلفدان ، ومـثلت أمام الوزير حامد؛ ليستجوبها فلما رآها ، وقعت فى قلبه موقـعاً حسناً ، فجعل يسترضيها ، ويساومها فى أمر الزواج ، تارة بالتهديد والوعيد ، وأخرى بالإغراء بالمـال والسلطان . لكنهـا أبت أن تبلغه مـا أراد ، وراحت تسخـر من سطحيـته وطمعـه ، فشق ذلك على الوزير ، وظن أن مـا يمنعها هـو حبهـا لمنصور الحلاج ، فـاعتبره غـريماً له فى حب جلفدان ، وحقـد عليه حقداً عظيـماً وسعى لدى الخليفة العباسى المقتـدر بالله ، ليحرضه على سفك دم منصور متهما إياه بالسحر والشعوذة والإلحاد وإثارة الفتن والقلاقل .

كما سعى لدى شيخ الإسلام ليسـتصدر منه فتوى تجعله حلال الدم . لكن الخليـفة تردد فى البت فـى قضـية منصـور ، إلا بعد أن يجـد له من الخطر ما يبـيح قتله ، خـشية أن يحـمل دمه فى رقبـته ، فطلبه وعـقد له

العديد من المجالس والمناظرات التى حضرها علمـاء وفقهاء ووزراء وشيوخ طريقـة ، لكنهم حامـوا وماوردوا ، ولم يصـلوا إلى كلمة سـواء بينهم ، لاختلاف الآراء بين مؤيد ومعارض .

ويحبس منصور فى حجرة بقصر الخليفة ، فكان يسمح للناس بزيارته والدخول عـليه ، وما أن يراهـم تحلقوا حولـه يخوض فى حديـث الوجد والشوق ، ويظهر لهم من الكرامات ما يبهـرهم ، فأغوى بذلك خلقاً كثيراً من أهل الخليفـة وغيرهم . وكـان النـاس يخـرجون من عنده يهتفـون : « منصور حـق . . منصور حق » فرأى الخلـيفة درءا للفـتنة أن يزج به فى سجن بغداد ، فمكث فيه مدة من الزمن .

ثم قدم إلى المحاكـمة الأخيرة التى كان يرأس جلسـاتها القاضى «أبو عمر الحمادى» ، ويحضرها معه الوزير حامد والجنيد والمكى والخليفة أحيانا ، ونفر من العلماء وأهل الرأى . ويلاحظ القاضى من خـلال الجلسات حقد الوزير الشـديد على منصـور ، ومكر المكى والجنيـد به فيثـور فى قاعـة المحكمـة ، ويطلب عدم تدخل أحـد منهم فى المحاكمة ، تحـريا للعدل ، فيهدده الوزير ، وينذره بالهلاك ، فلا يبـالى القاضى بتهديده ، ويرد عليه فى ثقة وأنفـة : «قل لن يصيبنا إلا ما كـتب الله لنا» . « فأيقن الوزير أنه لابد أن يجرب معه سلاحاً آخـر ، وراح يغريه بالمـال والجاه ، اللذين تتبخر أمامهما المـبادىء . لكن القاضى كان عفوفاً قنوعاً ، فـرده خـائبا ، وأخبر الخليفـــة بما كان ، فزاده بذلك تردداً وتـوجساً . . ويقع القـاضى ضحـية للصراع النفـسى ، نظراً لما يتعرض له من ضغـوط من قبل الدولة ، التى

تستحثه فى إصدار الحكم بقتله ، وما يعانيه من عذاب الضمير ، فالأدلة غير كافية ، يغلب عليها التخليط والدس ، فكيف يحكم فى هذه القضية ؟ لم يجد القاضى مخلصاً له من هذا العذاب إلا أن يقدم استقالته ، معلنا عجزه فى القياس والاجتهاد ، لكن الجنيد يثنيه عن هذه الفكرة ، خاصة بعد أن جاءت فتوى شيخ الإسلام بإحلال دم الحلاج ، ثم راح الوزير يبالغ فى تهديده للقاضى ، واتهامه بالتواطؤ مع الحلاج ضد الدولة ، وأنه يسير فى طريق مسدودة ، يقدم فى نهايتها دمه .

وعقدت الجلسة الأخيرة ، وفيها قرأ الوزير على الأعضاء فقرة من كتاب للحلاج ، تقول بإسقاط فريضة الحج . فسأل القاضى الحلاج عن صحة نسبة هذا الكتاب إليه . فصدق منصور هذا الكلام مما أثار القاضى وأغضبه ، فقال لمنصور : كذبت ياحلال الدم ! فانتهزها الوزير فرصة ، واستكتب القاضى الحكم ، فدفعه القاضى ، بحجة أنه قال هذه الكلمة وهو غضبان ، ولا يحكم القاضى فى ساعة غضب ، فهب الوزير ومن فى المجلس فى وجهه فاضطر إلى توقيع الحكم .

وأذاعت الدولة الخبر ، فثار الناس من أجله ، وخرجوا فى مظاهرة يهتفون : « حق .. حق .. منصور حق .. ! » لكن الدولة أسرعت فى تنفيذ الحكم ، فقطع من خلاف ، وتوضأ بدمه وضوء الأنبياء ، وسط ذهول الناس . فلما قتل ، هز الساحة صوت من السماء :

تخلصت يامنصور من دار الظلم والآلام

فقل « أنا الحـــق » وادخل الجنـة بسلام

وبعد عشـرين عاماً أى فى سنة ١٩٦٤ ، أصدر صلاح عبـد الصبور «مأساة الحـلاج » التى كتبهـا فى ظل ظروف سياسية واجـتماعيـة معينة ، تختلف دون شك عن الظروف السـياسية والاجـتماعية التى كـانت تمر بها تركيا حين كتب أقطـاى مسرحيته عن الحلاج . هذا فـضلا عن الاختلاف الكبير بين ثقـافة الشاعرين ؛ لهذا كـان من المتوقع أن يختلفا فى كـثير من الموضوعات ، ويتفقـا فى بعضها الآخر ، اختلافا أو اتفـاقا يغرى بالمقارنة بينهما . فالشخصية واحدة والكتب التى قرأها الشاعران عنها - ظنا - تكاد تكون واحـدة ، لكن المعالجـة تختلف نظرا لاخـتلاف ثقـافـة الشاعـرين الخاصـة ، واختلاف التكوين النـفسى ، والجو العـام فى بيئة الشـاعرين . ونحن نلتمس للمقارنة وجهين :

(أ) الصدق التاريخى .　　　　(ب) المعالجة الموضوعية .

أولاً : الصدق التاريخى :

من الملاحظ أن الشاعرين يختلفان اختلافاً كبيراً ، من حيث ارتباطهما بالأحداث التـاريخيـة التى جاءت فى كـتب التاريخ والطبقـــات ولا حرج على الشـاعر أو الأديب فى أن يتـحلل من أخبـار التاريخ ، وصـولا إلى هدف أو مغـزى يريد بلوغه . لكن مـن حق الباحث أن يبـحث فى درجة صدق العـمل الفنى مع حقـائق التاريخ ، مـادامت الشخصـية تاريخـية ، خـاصة إذا وجـد فى الموضوع أكـثر من عـمل فنى واحد . . . ومـثل هذا

البحث لا يكون عبثاً ، لأنه يظهر لباقه الشاعر أو الأديب فى التعامل مع التاريخ ، وتطويع أحداثه لمذهبه فى الأدب . وهو لهذا قد يستغنى عن بعض أحداث التاريخ ، أو يختلق أحداثا لم تقع ، وشخوصا لم توجد ، حتى يخرج عمله فى الصورة التى يريدها .

والواضح أن أقطاى كان أكثر تمسكا بالأحداث التاريخية من صلاح عبد الصبور فى كثير من المواضع . ويمكن توضيح ذلك فى النقاط التالية :

(أ) عدد المحاكمات والقضاة :

اقتصر صلاح عبد الصبور على المحاكمة الأخيرة فقط ، بينما أورد أقطاى عدداً من المحاكمات ، فأوقف الحلاج أمام المفتى ، وأمام الوزير ، وأمام الخليفة ، وشيخ الإسلام ، والقاضى . وهذا أقرب إلى ما جاء فى كتب التاريخ ، لكنه أغفل وقوف الحلاج بين يدى الوزير «على بن عيسى» فى المحاكمة الأولى ، والتى خلع الوزير بعدها لضعفه أمام الحلاج .

كما ذكر عبد الصبور ثلاثة من القضاة ، هم « أبو عمر الحمادى » الفقيه المالكى ، و « ابن سليمان » الفقيه الحنفى ، و « ابن سريج » الفقيه الشافعى ، فى حين أن الفقيه الحنفى الذى حضر هذه المحاكمة لم يكن اسمه « ابن سليمان » وإنما كان اسمه « أبو الحسين الأشنانى » ، فضلا عن أن « ابن سريج » الفقيه الشافعى لم يحضر هذه المحاكمة لاعتذار فقهاء الشافعية عن حضورها ، كما جاء فى جميع المصادر التاريخية[1] أما أقطاى فلم يذكر من الفقهاء إلا القاضى « أبو عمر الحمادى » اعتمادا على أنه كان كبير القضاة وعليه وقعت تبعة الحكم .

(١) البغدادى . تاريخ بغداد ، جـ ٨ ، صـ ١٢٨ .

والغريب فى الأمر أن صلاح عبد الصبـور ذكر فى تذييل مسرحيته أنه يعلم أن ابن سريج لم يحضـر هذه الجلسات ، لأنه توفى سنة ٣٠٦ هـ ، أى قبل المحـاكمة الأخيـرة ، ومع ذلك جعله أحد قـضاتها . وهى معـارضة لحقائق التاريخ ليس لها ما يبررها[١] .

(ب) الشـهـود :

لم يذكر عبد الصبور من الشـهود إلا الشبلى صديق الحلاج ، انطلاقاً من فكرة أن هيئة المحكمة ممثلة فى الحمادى كبير قضـاتها ، قد رتبت الأمر مع السلطة على التخلص من الحلاج بسـفـك دمـه ، وفضلا عما فى ذلك من خروج على حقـائق التـاريخ ، فإنه فى رأيى مـأخذ فنى على المسرحية ، لأنه جـعلها تـفتـقر إلى عـنصر الصـراع ، والأخـذ والرد بين الشهـود ، وتضارب الآراء ، الأمر الذى تولدت عنه حيرة الخليفة ، وتوجس القـاضى من إصـدار الحكم ، خشية غـضـب الله . . . . ومـا كان على صلاح من حرج لو فعل ذلك ، لأنه مـا كان سيبتـعد كثيراً عن حـقائق التاريخ ، بل كان سيخدم الفكرة الرئيسية فى مسـرحيته ، التى تجعل الحلاج بطلاً شعبياً شغل أهل زمانه جميعاً ، سواء فى ذلك رجال السياسة والعلماء والعامة .

أما أقـطاى ، فقـاعة المحكمـة عنده تزدحم بالشهـود الذين تـتـفاوت ثقافتـهم ، ومكانتهم الاجتمـاعية ، فهم بين درويش ، وفقـيه ، وعالم ،

(٢) مصطفى عبد اللطيف السحرتى دراسات نقدية فى الأدب المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، صـ ٢٣٣

وشاعر وكاتب ، ووزير ، وحاجب ، وسجان ، وحارس وجندى ، وكثير من العوام بين رجال ونساء ، فكانت المحاكمة شعبية إلى حد كبير ، فخلق بذلك جواً مناسباً للصراع الفكرى واختلاف الآراء حول الحلاج .

ويؤخـذ على أقطاى أنه اختلـق شهـوداً لم يرد لهم ذكر فى قـضيـة الحلاج ، كالمفتى مصيب أفندى ، وذى النور الدمشقى ، والشيخ عز الدين الحمدانى ، وعيـاض البخارى ، وفصيحى ، ودهرى البـغدادى ، والشيخ أبى الوفـا ، وأبى سعـيـد الخراز ، وأبى القـاسم التـستـرى ، وأبى على الفرمـاوى ، وأبى الخيـر النساج . ومن العـجيب أنه مع إسـرافه فى إيراد شهود لم تكن لهم شهادة فى المحاكمات ، أغفل شهادتين هامتين

الأولى : شهادة ابن عـطاء صديق الحلاج الذى لقى حتـفه بسببـها لجرأته على الوزير حامـد فى كلامـه ، إذ قال له حين سأله عن صـحة اعتقاد الحـلاج : « هذا اعتقاد صحيح » ومن لا يعتـقد هذا فهو بلا اعتقـاد . مالكَ ولهذا ، عليك بما نصبـت له من أخذ أموال الناس ، وظلمـهم ، وقتلـهم مالكَ ولكلام هؤلاء السـادة . . . فـأمر الوزير بأن يضـرب بخفـه على فكيـه حتى سـال الدم من منخريه ، وحمل إلى بيته مغشياً عليه ، وظـل فى فراشه أسبوعاً حتى جاءه الأجل[1] .

(١) البغدادى ، صـ ١٢٨ .

والثانية : شهادة بنت السمرى التى زوجها الحلاج لأحد ولديه ، والتى ادعت أمام المحكمة أن الحلاج تغشاها وهى نائمة ، فلما أحست به فزعت ، فقال لها ، جئت أوقظك للصلاة . ثم ادعت أنه أمرها بالسجود له ، فقالت : وهل يُسجد لبشر ؟ !

فقال : إله فى السماء ، وإله فى الأرض ! . . ولعل أقطاى لم يشأ أن يذكر هذه الشهادة لوضوح الكذب والافتراء فيها .

(جـ) الخليفة العباسى المقتدر بالله :

لم يرد له ذكر عند صلاح عبد الصبور ، رغم كثرة حديثه عن الدولة ، وفساد الحكم . أما زكى أقطاى فقد رسم له صورة تتفق مع ما جاء فى الروايات التاريخية ، فهو حين علم بخبر الحلاج طلب مثوله أمامه ، وأغلظ له القول فى سؤاله ، فكان من كلامه :

علمنا يا هذا أنك تلقى الناس فى المساجد
وتلغو فى كلامك وتقول : أنا الله الواحد
فأثرت الفتنة ، لا فى بغداد وحدها
بل عمت بلاد الإسلام ، واستعر أوارها
أولى أنت . . . أم نبى . . أم إله . . أم عبد ذليل ؟ !
أم عاطل ، شريد ، طريد ، ضليل ؟ !
أعاشق أنت . . أم مجنون . . أم عارف من الواصلين ؟ !
أم أنت من العصاة الفاسدين الفاسقين ؟ !

كـــيـف يحـــل الـله فى بشـــر فـــان ؟ !

وكـيـف يعلو العـبـد ، فـوق الزمـان والمكان ؟ !

لكنه رأى فى كلام منصور ما جعله يتردد فى البت فى أمره ، فلم ير عليه سوءا فى قول ولا فعل ، اللهم إلا قول « أنا الحق » . . فاستفتى فيها كثيراً مـن العلماء والشـيوخ ، فكانوا بين مـؤيد ومعـارض ، مما زاد فى حـيـرته . ولم ير أمامـه سبـيلا إلا النـصح للحلاج بأن يتـخلى عن هذه الكلمة ، فتبرأ ساحته :

لو قلت يا مـنصـور « هو الحق » غـفـــرنا لك ،

وأطلـقنا ســـــراحك ، وســـــامـــحـناك . .

فاطرح هذا الوهم ، ولا تخـالف عقيـدة العوام ،

وســـر فى طريـق الأمـر بـالمعـــروف والســـلام

لكن الحـلاج لم يزدجر ، فظل الخلـيفـة حائراً بين تحـريض وزيره له على قـتله ، وبين ما يراه من كـراماته ، فكيـف يحكم بالقتل فى بســاطة وسهولة على رجل يخرج من سجن أبوابه من حديد ، وعليه حراس غلاظ شداد ، دون أن يراه أحد ، ثم يعود إلى السجن ليجدوه ولا يجدوا السجن بمن فيه ؟ ! ثم راح يفكر فى إطلاق سـراح الحلاج ، لكن وزيره ألح عليه ، وجسم له خـطره ، حتى جعلـه يضطر فى النهاية إلى توقـيـع الحكـم ، وهو مضطر متـردد ، وآية ذلك أنه بعد التوقيع ذهب إلى الحـلاج ليلة قتله ورجاه أن يرجع عن قولته ، لكنه صده ورده ، فقفل راجعاً :

الخليفة ← يا منصور ! بدل كلامك خيراً لك .

منصور ←معاذ الله !

الخليفة ← أنا ذاهب .. أنت تقتل نفسك !

منصور ←ياللعجب !

الخليفة ← سأمضى أنا إلى قصرى وأنت إلى مشنقتك ..

منصور ←مصحوباً بالسلامة .. نجاك الله من الهلاك ..

الخليفة ←أى هلاك ؟ عصيان الشعب ، فساد الأمة ! ثورة العلماء ، والوزراء .. أم شر الجن والشياطين ؟

منصور ← أدعو أن يبتلى الله هذه الأمة الظالمة الكافرة ، بالمرض والجهل والاضطراب ، والفساد والفتنة .

الخليفة ← دعك من هذا وفكر فى مصيرك ومصير أسرتك ..

منصور ← أسرتى لها خالق يكفلها ، وهو يعلم سريرتى ..

(د) الوزير حامد بن العباس :

بالرغم من أن الوزير حامد بن العباس كان له الدور الأكبر فى قتل الحلاج فإن صلاح عبد الصبور أغفله تماماً ، مع أنه صورة مجسدة لفساد الحكم فى تلك الفترة .

ولست أدرى ، لماذا لم يستفد صلاح من الصورة الفاضحة التى رسمها ماسينيون للوزير حامد فى مقاله « المنحنى الشخصى فى حياة الحلاج » . كما استفاد منه فى رسم صورة القاضى الحمادى ؟ !

ولعله اكتفى بأن أظهر صوت السلطة من خلال الشرطيين المدسوسين بين الناس فى المسجد ، ومن خلال الحاشية التى أرسلها الوزير إلى هيئة المحكمة .

أما زكى أقطاى فقد استفاد من كل ذلك ، بل بالغ فى وصم الوزير بالفساد ، فجعل الدافع الذى حركه لقتل الحلاج ، دافعاً شهوانيا رخيصاً ؛ لأنه حين رأى جلفدان ، المريدة العاشقة ، تعلق قلبه بها ، وشغفته حباً ، فساومها ، وراودها ، فأعرضت عنه ، فتوهم أنها تعشق الحلاج ، فراح يعدها ويتوعدها :

ويلك قد أضلك ذلك الساحر !

وغرك بكلامه الفاجر .... !

حذار أن تمضى معه

ودعيه يلقى مصرعه

ولك كل ما عندى من خزائن وغلمان

وتصبحين ملكة بغداد ، يا خير الحسان

فلم يجد سبيلا أمامه لكى يتخلص من غريمه إلا أن يسعى فى قتله ، كى يقنص صيده ، فيأخذها من زوجها وطفلها خالصة له ، وراح يسعى لدى الخليفة ، وشيخ الإسلام ، والقاضى ، واتخذ من الدين ، وسيلة لبلوغ غايته الدنيئة ، فأبدى غيرته على الدين وخشيته على أمن الدولة واستقرارها ، فاتهم الحلاج بالزندقة والشعوذة ، ودعا إلى تخليص

الناس من شروره وفتنـه ، وراح ينتظر تنفيذ العقوبـة فى الحلاج على أحر من جمر الغضا .

منصور ← لـكـل شىء نهاية إلا العـشـق ، فلا نهـاية لـه ؛ لأن خلود المعشوق يمنح العاشق الخلود .

الوزير حامد ← عنادك يقودك إلى النار .

منصور ← النار ! أنا فى سماء العشق السابعة أركض فى أودية النار ورياض السـعيـر . . ويجـمعنى والعنقـاء عش واحد .

الوزير حامد ← أجل ! . . لقد رآك الناس أمس تركض هناك !

منصـور ← الصورة تتـلاشى عند الوصـول . . غـدا سأكـون هناك ، وسأصبح أنا والمعشوق شيئا واحد . .

الوزير حامد ← أنت واهم ومجنون .

منصور ← أجل . . أجل . . أنا فى وهم وبطلان مادمت فى الدنيا .

الوزير حامـد ← نعم . . لتعلقك بهذه الأباطيـل ، وصلتك بالجن وممارسة السحر .

منصـور ← نظرت أمس فى النجـوم ، وقرأت كـتاب التنجـيم ، واستخرت الله ، فرأيتنى بلغت مقام الوصول . .

الوزير حامد ← ونحن ننتظر صدق النبوءة !

ومبالغة أقطاى فى وصم الوزير بالفساد الخلقى - على أنه ممثل للسلطة - أكثر اتفاقا مع التاريخ ، وقبولا فى النفس ، من وصم عبد الصبور للقاضيين الشرعيين بهذه الصفة ؛ لأن نفس المشاهد تكون راغبة فى التشفى من السلطة وإدانتها على اعتبار أنها الخصم الأول للحلاج .

(هـ) القاضى الحمادى :

لم أجد فى كتب التاريخ والطبقات التى تعرضت لقضية الحلاج ، مايشين نزاهة القاضى أبى عمر الحمادى ، بل تتفق جميعها على أن الحمادى تراجع فى توقيع الحكم ، واضطر إلى ذلك اضطراراً تحت ضغط الوزير حامد . ولهذا فإنى أعجب من هذه الصورة الشائنة التى رسمها له ماسينيون وأخذها عنه صلاح عبد الصبور ، فأجاد تصويرها .
قال ماسينيون فى صفة القاضى الحمادى : « رجل طموح صبور ، أنيق أديب ، وصل فى هذا الانقلاب إلى مركز قاضى القضاة ، منتهى آماله ، افتن فى الملق حتى بلغ الغاية ، وبرع فى المجاملة إلى حد يصل نطاق الأسطورة ، شديد الولع بالعطور ، قادر على أن يتحلل من أحكامه السابقة ببساطة تثير الحيرة ، قد استعاض عن نقص أدلته فى مذهب مالك من حيث الحديث والقياس ، باهتمام دقيق بصياغة المسائل الفقهية ، ولابد أن يكون قد امتلأ فخاراً بكونه قد استطاع أخيراً النجاح فى إنهاء قضية مثل هذه فى الصعوبة ، بحل بارع كهذا فى سبيل الصالح العام .

وهو بهذا إنما يخدم انتقام ذوى المكانة الحريصين على مراتبهم[1] فرسم عبد الصبور صورة مطابقة لهذه الأوصاف تماما فى سياق من الكوميديا الساخرة :

أبو عمر ← هذا رجل دفع السلطان به فى أيدينا

موسوماً بالعصيان

وعلينا أن نتخير للمعصية جزاء عدلاً

فإذا كانت تستوجب تعزيره .

ابن سليمان ← عزرناه .

أبو عمر ← وإذا كانت تستوجب تخليده

فى محبس باب خراسان .

ابن سليمان ← أهلكناه . . . .

أبو عمر ← لا ليس بأيدينا ، إذ نحن قضاة لا جلادون

ما نصنعه أن نجدل مشنقة من أحكام الشرع

والسياف يشد الحبل .

ابن سليمان ← هذا تعبير رائع .

لكن لا يستغرب أن يصدر عن سيدنا الحمادى .

(١) عبد الرحمن بدوى شخصيات قلقة فى الإسلام صـ ٨٠ .

أبو عمر ← عفوا . عفوا يابن سليمان

إطراؤك يخجلنى ، ويذكرنى ،

أن الله يوفقنى

دوما للتعبير الرائع

أحكى لك قصة :

بالأمس لقيت صديقى القاضى الهروى

وهو كما تعلم ،

رجل مغرور بقريحته وذكائه

فسألته :

« ما أجدى ما يطعن من طعن عن الطعن »

فاحتار ولم يفهم

. . . .

لم يعرف قاضينا المغرور بعقله

معنى تعبيرى الرائع

فحككت له أنفى . ثم مضيت[١] .

(١) صلاح عبد الصبور : مأساة الحلاج ، بيروت ، منشورات اقرأ ، صـ ٨٣ ، ٨٥ .

إن المؤلف قد أسرف فى تصوير شخصيتى أبى عمر وابن سليمان على هذا النحو من الانحراف البين عن جادة الشرع والحق والخضوع المهين لإرادة السلطان ، حتى أصبحا شخصيتين نمطيتين للانتهازية والفساد . فليس من المعقول ولا المقبول من قاض كبير أن يعلن انحرافه بلا حياء على هذا النحو أمام قاض كبير آخر ، دون أن يحاول أن يتلطف للوصول إلى غايته أو يخفى ما فى نفسه من باطل حتى يبدو أمام صاحبه بمظهر الحق . وليس من المعقول ولا المقبول أيضا أن يكون القاضى الثانى إمعة على هذه الصورة التى رسمها له المؤلف ، لا عمل له فى المحاكمة إلا أن يتم حديثا بدأه أبو عمر أو يردد قوله كالببغاء أو ينافقه ظاهراً بلا حياء[1] .

ثم ها هو ذا القاضى الحمادى صنيعة السلطة الغاشمة الظالمة ، قد باع الدين فى خدمة ذوى التيجان والسلطان :

أبو عمر ← هذا أمر لا يسكت عنه

هذا الشيخ يقول :

الإنسان شقى فى مملكة الله

معنى هذا أن الأمة تشقى فى ظل خلافة مولانا .

ويقول :

إن الفقر يعربد فى الطرقات

(١) د . عبد القادر القط من فنون الأدب – المسرحية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٨ صـ ٥٩

معنى هذا أن الأمة لا تجد الأقوات
ولنسأل عندئذ من سلب الأقوات

ويقول :

برتاج ذهبى
يعنى الأمراء وأهل الجاه .
وتؤدى هذى الألفاظ المشتبهة
بالقراء إلى نبذ الطاعة
ولزوم الفتنة
ولهذا أحكم مرتاحا بإدانته وعقابه[١] .

. أما صورة القاضى الحمادى عند زكى أقطاى فهى تتفق مع ما جاء فى كتب التاريخ ، وتختلف اختلافا كبيراً عن صورته عند صلاح عبد الصبور فهو رجل نزيه يتحرى العدل ، ويثور من أجله ، فلما أحس من الوزير كيداً للحلاج ، أمر بطرده من ساحة المحكمة ، هو والجنيد والمكى ، مع كونهما من شيوخ التصوف يومئذ :

الوزير حامد ←لقد أخذت القضية وضعاً خطيراً لهروب منصور من سجنه مدة يومين ، فحرض بذلك العامة على التمرد والعصيان . . وها هو ذا أمس قد سحر الخليفة بكلامه ، حتى جعله يعدل عن رأيه فيه ، وأصبح البلد مهدداً بخطر عظيم .

(١) صلاح عبد الصبور مأساة الحلاج ، صـ ٨٢ ، ٨٥

القاضى ← أنا المسئول عن الحكم أيها الوزير ، ويجب أن لا أخضع لأى تأثير .. وفى ظنى أن كرمات منصور هى التى جعلت الخليفة يعدل عن رأيه فيه ..

الوزير حامد ← أتريد أن تسمى السحر كرامة ؟ !

القاضى ← أيا كان الأمر ، فليس هناك الآن ما يكفى لإصدار الحكم ، وهو لم يعترف بعد ، ولا يمكن أن نبنى الحكم على تأويل وتخريق !

فلما ادخل الشهود قال القاضى للوزير والمكى والجنيد :

القاضى ← أرجو أن يتفضل الوزير والسادة الحضور فى الحجرة المجاورة ، حتى أفرغ من استجواب الشهود .

الوزير ← فليكن فيما بعد أيها القاضى .

القاضى ← كلا .. فلكى تبرأ ساحة العدل لابد أن أستجوب الشهود بمفردى فلا يزاحمنى أحد فى عملى ..

الوزير ← اعلم يا أبا عمر أنك أنت المسئول الوحيد عن هذه المهزلة ! لقد طفح الكيل .. وكثر العصاة والغوغاء ، وعمت الفتنة فى المساجد والساحات .. وستذهب أنت الضحية قبل منصور !

القاضى ← خفف من غلوائك أيها الوزير ، فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .. ولتأخذ الشريعة مجراها .

بل لا يتوجس القاضى من مدافعة الخليفة نفسه :

الخليفة ← لقد وقعت الفتنة وانتشر العصاة فى كل مكان ، فلابد أن تصدر الحكم بإعدامه اليوم ، لتضع حداً لهذه الفتنة ...

القاضى ← هذا ما يصبو إليه الوزير الأعظم ، لكنى أستميحكم العذر ، فليس لدى من براهين الاتهام أو اعترافه ما يبيح ذلك ..

الخليفة ← إن أعوزنا الدليل ، فيكفينا اعترافه .

القاضى ← هو لم يعترف بشىء ويشهد بإسلامه وإيمانه بالله ، ويصدق بالرسول والرسالة ....

وسبق أن ذكرت أن زكى أقطاى جعل القاضى الحمادى يفكر فى أن ينسحب من هذه القضية ، لحيرته ، والتواء حلها عليه ، فرسم بذلك صورة مثالية للقاضى ، مستمدا إياها من أخبار التاريخ ، بعد أن أضاف إليها من خياله ما جعلها تبدو شامخة متعالية ، على العكس تماماً من صلاح عبد الصبور ، الذى جعله منافقاً يتملق السلطة ، وأولى النعمة . ونحن نفسر ذلك بأنه إما أن يكون متأثرا بما جاء فى مقال ماسينيون عن الحمادى ، وإما أن يكون أراد أن يدين واقعه المعاصر ،

ويرمز إلى أن القانون ورجاله أدوات فى يد السلطة يسخرونها لبلوغ مآربهم .

(و) العنصر النسائي :

جاءت مسرحية صلاح عبد الصبور خلواً من المرأة ومرد ذلك - فى رأيى - أن عبد الصبور لم يهتم بخلق جو من الدراما والصراع فى مسرحيته بقدر اهتمامه بأن يتخذ من الحلاج قناعاً يتحدث من ورائه عن هموم عصره ، وآلام وآمال مجتمعه ، بل وآلامه هو الآخر . أما أقطاى ، فما كانت له رسالة «صلاح» ؛ ولهذا حرص أن يخرج مسرحيته فى شكل درامى ، مزدحم بالأحداث والشخصيات . وقد احتلت المرأة مكاناً كبيراً فى مسرحيته ، متمثلة فى شخصية جلفدان ، التى يرق قلبها لحديث العشق الإلهى ، فراحت تتهيأ للانقطاع لله ، فقالت بعدما سمعته من كلام منصور شيخها فى لغة شاعرة حافلة برموز التصوف :

كان فى قلبى ظل أسود لا أستطيع التحكم فيه
يغشى عينى ، ويصيب رأسى بالدوار .
لا يقر فى مكان ، ولا يشغله شىء عنى
ولا يرضى بهذه الدنيا الفانية
ثم اعترانى حال ، كحال الفراشة المحترقة ،
حتى شققت بروحك الشافى ، هذا القلب .
فصرت أنهض مع الفجر أتامل دنيا الأبد ،
وطردت الشبح الحالك من حياتى ،

لكأن روحي الآن تحلق من المسـاء حتى السـحر ،

وكـــأن نهـــــر قلبـى اجـــتـــاح ســـدوده

ثم تركت زوجها وولدها ، رغم صعوبة ذلك على الأم وخرجت فى سبيل الشوق والعشق هائمة ، غائبة عن نفسها . ثم قبضت الشرطة عليها ، ووقفت بين يدى الوزير حامد بن العبـاس ، الذى ركع لجمالها فراح يتودد إليـها ويتـوسل ، وأغـراها بكل مـا لديه من أثاث ورياش فـأبت فى يقين الصادقين ، فأمر بـحبسها فى حجرة مظلمـة . وقد نجح آقطاى حين صور ضعف المرأة رغم قوة عقيدتها فجـعلها موصولة الحنين إلى ابنها وزوجها ، فتبكى أحر البكاء إذا مر على خاطرها ذكـر أحدهما ، فهى حين تذكر ابنها تبكى وتقول :

لكـأنى أرى بالبـــيـــضـــاء أرضـــا خـــربة

فـــيـــهـــا ضـــل ولـــدى قـــدوس عن أبيـــه

يضرب فى الظلمـات ، وعيناه تفيـضان من الدمع

يبـــحث عـنى ، وينـــــادى أمى . . . أمى !

يسـائل القـفـار ، والوديـــان عـــن أثـــرى . .

وفى لونه شـــحـــوب اليتـم ، ولوعـة الحـــزن

. . . .

. . . .

يصـــرخ ملتــاعــاً فى جــوف القـــفـــار المظلم

يسائل الأنهار عن خبرى
يصيح : جلفدان .. جلفدان ! تعالى أمى !
ولا داع ، ولا مجيب إلا الصدى ...
يخيل إليه فى الظلمات أنه يرى طيفى ...
فيفتح ذراعيه ، ويعدو نحوى .
يحسب أنه . قاب قوسين من عنقى وصدرى
فتعصف ريح السراب بزهرة أمله وتذرى ....

وهى رغم حنينها ولوعتها من أجل ولدها وزوجها ، لا تتراجع فيما مضت فيه ، وإن كانت أحيانا تشعر بالضعف ، وهذا من شأنه أن يظهر شدة الصراع فى نفس جلفدان ، وخطورة الأهوال التى كابدتها من أجل غايتها السامية ... وبالرغم من الإفراج عنها ، وعودتها إلى أسرتها ، فإنها ظلت على وفائها لشيخها منصور الحلاج ، ففى يوم تنفيذ الحكم فيه شقت الصفوف وخرت أمامه راكعة تقبل أغلاله ، وهى تبكى وتمرغ وجهها فى التراب وتقول :

« سألقاك عند الحبيب يا منصور ، وأجلك نفس الإجلال والتقدير وسأحيا بالإيمان وبالأمل ... فهما من بعض صبرك وشجاعتك » ...

وبهذا يكون أقطاى قد نجح فى تجسيد الصراع الداخلى والخارجى لدى جلفدان والقاضى ، فجعل الأولى موزعة بين عاطفة الأمومة ، وإغواء الوزير لها ، وبين ما وقر فى قلبها من شوق وجذب نحو الحقيقة

الأولى وجعل الثانى موزعاً بين ضغط السلطة عليه ، وبين يقظة ضميره الحى .

وإن كان أقطاى قد اختلق شخصية جلفدان اختلاقا ، ليجعل مسرحيته حافلة بالدراما ، فإنه فيما عدا جلفدان وبعض الشهود المختلقين ، يترسم ما جاء فى أخبار الحلاج . وهو بالنسبة إلى صلاح عبد الصبور ، يبدو أكثر تمسكاً بالأحداث التاريخية التى طوعها لغرضه من تأليف المسرحية .

ثانيا : المعالجة الموضوعية :

(أ) عند صلاح عبد الصبور

يقول صلاح عبد الصبور : « بطل وسقطته هذه هى مسرحيتى ، والسقطة سقطة تراجيدية ، كما فهمتها عن أرسطو ، نتيجة لخطأ لم يرتكبه البطل ، ولكنه فى تركيبه وباعث الخطأ هو الغرور وعدم التوسط ، وسقطة الحلاج هى مشهد البوح بعلاقته الحميمة بالله وباعثه هو الزهو بما نال ، وهو حين ارتكب هذه السقطة أباح للناس دمه ، إذ أفشى سر الصحبة ، فسقطت مروءته أمام الله .

رعاك الله ياولدى لماذا تستثير شجاى
وتجعلنى أبوح بسر ما أعطى
ألا تعلم أن العشق سر بين محبوبين
هو النجوى التى إن أعلنت سقطت مروءتنا

لأنـا حـينمـا جادلنا المحـبـوب بالوصل تنعـمنـا

دخلـنــا الســتــر ، أطعــمنـا أشــربنـا

وراقــصـنا وأرقــصنا ، وغـنينا وغـنينـا

وكـوشــفنا وكــاشـفنا ، وعــوهدنا وعــاهدنا

فلـمــا أقــبـل الصــبح تفــرقـنا

تعـاهـدنا بأن أكـتم حـتى أنطوى فى القـبـر[1]

نعم لم يستطع الحلاج أن يحـبس النور بقلبه ، فكشف الســتر ، وأذاع السر ، وهو على يقين أنه بكشـفه يبيح دمه ، وفى ذلـك خلاصه ، وإتحافـه بالوصول . فكان عبـرة لجميـع المتصـوفة ، وبخـاصـة الشبلى صديقـه ، الذى كان يشطح فى كلامـه فى غير مـا تحرج ، قبـل قتـل الحلاج ، فكان يقول :

« أنا النقطة التى تحت الباء » و « لو دبت نملة صماء فى ليلة ظلماء ، ولم أشعر بـها أو أعلم بها ، لقلت إنه ممكور بى » فلمـا قتل الحلاج دارى وداور ، وأعلن ما يشـبه التوبة ، وتمسح بالسنة ، ولكن فى غـير إخلاص حـقـيقى »[2] .

(١) صلاح عبد الصبور / حياتى فى الشعر بيروت دار اقرأ ١٩٨١ ، صـ ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) د. عبد الرحمن بدوى : شطحات الصوفية ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٩ ، صـ ٣١

يقول صلاح :

يقـول : هو الحـب سـر النجـاة ، تعـشق تفـز
وتفنى بـذات حبيـبك ، تصبح أنـت المصلى
وأنـت الـصـــــــــــــلاة .
وأنـت الديـانـة والرب والمســـــجـــــد
تعـشـقت حـتى عـشـقت وتخـيلت حـتى رأيت
رأيت حـبـيـبى . وأتحـفنى بكمـال الجـمـال
جـــــمــــــال الـكـمـــــال .
فـــأتحـــفـــتـــه بـكمـــال المحـــبـــة .
وأفـنـيـت نفــــســى فــــيــــه[1]

هذه هى سقطه الحلاج عند صلاح ، أنه أفشى حديث الحب . لكنى أرى أنه لم يبـرز خطورة تلـك السـقطة ، فـأية جـسـامـة وخطر فى هذا الكـــلام الذى ذكره ؟ ! هذا الكلام يقوله عامة المتصوفة . . . فأين صيحة الحلاج الكبرى « أنا الحق » التى زلزلت قلوب الـناس يومئذ ؟ فـإذا علمنا أن الحلاج كـان يسعى جـاهدا من أجل الموت ، حتى لكأنه مـخلصه الذى يبلغ به المـأمـول ، فـهل تبـقى الـسـقطة سـقطة ؟ لم يـدرك الحـلاجَ إحســاس بالندم قط ، بل كان يمضى نحو الصلابة بشوق بالغ وهو يـــردد

(١) ماساة الحلاج صـ ١٠١

« حق . . حق . . أنا الحق » حتى وإن اعتبرناها سقطة فإن عبد الصبور لم يظهرها فى شكلها الحقيقى الخطير . .

لقد أجاد صلاح فى تصوير الجانب القلق فى حياة الحلاج ، بل فى حياته هو فى الحقيقة ، فحيرة الحلاج كانت من أجل الوصول إلى حقيقة الحق تعالى ، أما حيرة صلاح فكانت بين السيف والكلمة ، وأرى أن السيف رمز للإصلاح الثورى ، والكلمة رمز للإصلاح الاجتماعى الذى يأتى عن طريق الوعظ والقدوة الحسنة ، يقول صلاح : . . . أما القضية التى تطرحها . . مأساة الحلاج ، فقد كانت قضية خلاصى الشخصى . فقد كنت أعانى حيرة مدمرة إزاء كثير من ظواهر عصرنا ، وكانت الأمثلة تزدحم فى خاطرى ازدحاما مضطربا وكنت أسال نفسى السؤال الذى سأله الحلاج لنفسه : ماذا أفعل ؟ كان عذاب الحلاج طرحاً لعذاب المفكرين فى معظم المجتمعات الحديثة وحيرتهم بين السيف والكلمة ، بعد أن يرفضوا أن يكون خلاصهم الشخصى بإطراح مشكلات الكون والإنسان عن كواهلهم وهو غايتهم ، وبعد أن يؤثروا أن يحملوا عبء الإنسانية على كواهلهم . كانت مسرحيتى مأساة الحلاج معبرة عن الإيمان العظيم الذى بقى لى نقيا لاتشوبه شائبة ، وهو الإيمان بالكلمة[1] . نعم فالمثقف العصرى ، وبخاصة فى عالمنا الثالث ، يعيش نهبا لشتى التساؤلات ، موزع النفس بين المثال والواقع ، ممزق القلب حسرة على ماضيه الذى كان ،

(١) صلاح عبد الصبور . حياتى فى الشعر ، ١٦٥ ، ١٦٦

وحاضره المهين ، يعز عليه أن يرى أغلب أبناء وطنه يصرعهم الفقر والجهل والمرض ، الفقر يهـدم ضمائرهم ، والجهل يهدم عـقولهم ، والمرض يفتك بأجسامهم بينما أولو الأمر فى شغل شاغل ، يتقلبون فى أعطاف النعيم فيحار ، أيكون صلاح هذا المجتمع الفاسد عن طريق الكلمة الطيبة ، وتكوين ناشئة جديدة يؤمنون بالمبادىء والقيم ؟ ! لكن هل تلوح فـى الحاضر القاتم بارقة أمل فى جيل قادم أفضل من هذا الجيل أم أن الأمور تمضى بسرعة من سيىء إلى أسوأ ؟ ! يقول أدونيس :

هذا الجيل الطالع بعدى مثل هدير الأشياء
هذا الجيل وقفت عليه غنائى
لم يولد بعد ، فما فى الحاضر شىء يخلق منه الآتى
هو محض فراغ ومتاهات
لم يولد بعد ولكن ها هو ينبض فى أعماق الوطن
ها هو يحرق ثوب العفن
ها هو ينقب سد الأمس
بيد الشمس ....(1)

كان الحلاج - كما أراده صلاح - متردداً بين أن يعيش فى عزلة حالمة ، بعيداً عن هموم مجتمعه ، فيغض الطرف عن عذابات الناس ،

(1) أدونيس (على أحمد سعيد) : الأعمال الكاملة ، جـ ١ ، ديوان أوراق فى الريح ، دار العودة ، بيروت ، سنة ١٩٧١

حـيث يقاسـون مـرارة الفقـر والظلم والقـهر ، وبـين أن يشـارك الناس همومـهم ، وينزل إليهم ليطلع على أحوالهم عن قـرب ، ثم يرفع صوته ثائراً فى وجـه الظالمين لرفع الظلـم عن الناس وهو لا شك سـيـقـاسى ويعـانى ، ويعـرض للسجن وللقـتل . . لكن لا ضيـر ، المهم أن تصنع كلماته شيئا ، أن تسـمعها آذان ، وتعيها عقـول فيما بعد ، هو راض بأن يكون الضحية الـتى تقدم روحها قربانا من أجل الناس . فمـا أقرب الشبه بينه وبين المسيح فى عقيدة المسيحيين !

وفى رأيى أن هذه الفكرة من آثار المسيحية ، وأن عبد الصبور أراد أن يعيـد للأذهان صورة المـسيح فى شـخص الحلاج[1] . لكنى أرى أن فكرة التلذذ بالعـذاب والتضحـية والفـداء ، فكرة تنبع من تصوفـنا الإسلامى ، فلقد تمتع كـثير من متـصوفة الإسلام بنـزعة إنسانية عظيـمة فأفسـحوا من صدورهم للبـشر جميعـا ، وراحوا يتمنون على الله أن يخـصهم وحدهم بالعذاب دون سائر الناس ، فهـذا أبو يزيد البسطامى يقول : « رضيت بأن أحرق بالنار بدل خلقـه شفقة عـليهم » ويقول أيضا : « أردت رحـمة الله بالناس ، أكثر مما أردتها بنفسى » ثم يتمنى على الله أمنيه فى غاية الإنسانية فيناجيه قائلا : « إلهى ! إن كـان فى سابق علمك ، أنك تعذب أحداً من خلقك بالنار ، فـعظم خلقى فيـها حـتى لا تسع معى غـيرى[2]. ولهذه الفكرة جذور عميقة عند الحلاج ، بدأت بتلذذه الشديد بالعذاب الحسى فما

(١) د. عبد القادر القط المسرحية ، صـ ١٣٥

(٢) د. عبد الرحمن بدوى . شطحات الصوفية ، ٢٢ ، ٦٨

كان يطرب لشىء طربه للألم ، وهو القائل :

أريدك ، لا أريدك للثـــواب ولكنى أريدك للعـــقـــاب

فكل مـــآربى قــد نلت منهـــا ســوى ملذوذ وجدى بالعذاب(١)

ويبدو أنه رأى فـى العذاب نعمـة كبـيرة ، فراح يتـمنى على الله أن يختـصـه وحده بهـا ، فأنشـأ يناجى الله : « وبحـقك لو بعت منى الجنة بلمحة من وقتى ، أو بطرفة من أحر أنفاسى ، لما اشتريتها ، ولو عرضت على النار بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتها فى مقابلة ما أن فيه من حال استتارك منى . فاعـف عن الخلق ولا تعف عنى ، وارحمهم ولا ترحمنى فلا أخاصمك لنفسى ، ولا أسائلك بحقى ، فافعل بى ما تريد »(٢) بل لا يطمع متـصوفـة الإسلام فى دخول الجنـة ، لأنها حجـاب يحجـبهم عن الحـــق ، بنعيـمها الذى تركن إليه القلوب ، قـال البسطامى : « الجنة هى الحـجاب الأكـبـر ، لأن أهل الجنة سكنوا إلى الجـنة ، وكل من سكن إلى الجنة سكن إلى سواه ؛ ومن سكن إلى سواه فهو محجوب(٣) .

كان الشبلـى عند صلاح ، يمثل العزلة والسلبيـة ، يرخى عينيــه فى قلبه ، ويحدق فى النور الباطن ، ولا يشغل باله بالـدنيا وما يدور فيها من خير وشـر . وكان الحلاج رمزاً للمـثقف المعاصر الذى يحمـل هموم جيله

(١) ديوان الحلاج ، صـ ٤٣
(٢) أخبار الحلاج ، صـ ٦٨
(٣) شطحات الصوفية ، صـ ٢٢

فوق رأسه ، ولا يرضيه أن تتحكم فـئة قليلة من المترفين المرفهين فى أقوات ومصائر الأغلبـية الساحقة من الفقـراء والمرضى ، والموتى الأحياء . . ولا أن يشقى العامة فى السعى والكد ، وتستثـمر الطفيليات الخاصة دون أدنى جهد ، فيعطى الباطل ، ويحرم العامل . يقول صلاح :

الشبلى ← لا ، يا حلاج

إنى أخشى أن أهبط للناس

قد أبسط أجفانى فوق الدنيا

فأرى يسراها ،

أتمنى النعمى واليسرى

وأرى عسراها ، أتوقى العسرى

ويموت النور بقلبى .

الحلاج ← لا ، يا شبلى

ما نصنع عندئذ بالشر ؟

الشبلى ← الشر

ماذا تعنى بالشر ؟

الحلاج ← فقر الفقراء

جوع الجوعى ، فى أعينهم تتوهج

ألفاظ لا أوقن معناها

أحيانا أقرأ فيها

« ها أنت ترانى

لكن تخشى أن تبصرنى

لعن الديان نفاقك »

أحيانا اقرأ فيها

« فى عينيك يذوى إشفاق تخشى

أن يفضح زهوك

ليسامحك الرحمن »

قد تدمع عينى عندئذ ، قد أتالم

أما ما يملأ قلبى خوفاً ، يضنى روحى

فهى العين المرخاة الهدب فوق استفهام جارح

« أين الله » . . . . . ؟[١]

هكذا أراد صلاح عبد الصبور أن يتحدث عن الفقر المادى ، والجوع إلى لقمة العيش التى تسد الرمق ، « ليس كالفقر داء عظيم يقتل المشاعر الإنسانية ، ويحطم كبرياء الإنسان ، ويذله ، ويؤدى به فى كثير من الأحيان إلى المهالك أو الرذائل »[٢] . نعم ، فالفقر يقتل الضمير ،

(١) مأساة الحلاج / ٢٢ ، ٢٣

(٢) د. مفيد محمد قميحة الاتجاه الإنسانى فى الشعر العربى المعاصر ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨١ ، صـ ١٢٥

ويدفـع صاحـبه إلى اجتراع المعـاصى والذنوب ، بل يقوده إلى الشك فى عدالة السماء ؛ إذ ليس بالهين على النفـوس الحرة الطامحة أن ترى العاطل الباطل يتقلب فى النعيم ، والعامل المخلص يتـضور جوعا ، يحلم برغيف العيش ، ويحتال ليناله . . وهى مشكلة سمـاها « أبو حيان التوحيدى » : « حرمان الفاضل وإدراك الناقص » وقال عنها « ملكة المسائل والجواب عنها أمير الأجوبة ، وهى الشـجى فى الحلق ، والقذى فى العين ، والغصة فى الصدر ، والوقر على الظهر والشـك فى الجسم ، والحسرة فى النفس . . » ولهذا المعنى خلع ابن الراوندى ربقة الدين ، وقال أبو سـعيد الحصرى بالشك وألحد فلان فـى الإسلام ، وارتاب فى الحكمة . وهى المشكلة التى واجـهها ابن الرومى . . فذهب طوال حياته يؤمن بالمصادفـة العمياء . وبشىء سماه « الحظوظ » . . ثم واجهـها أبو حيان نفـسه فعرف مـعنى القلق الوجودى ولـم يجد فى تغيير الأهداف ما يهدىء به نفسه ، وقد نظر إليها المتنبى من زاوية السياسة فرأى اختلال الميزان السياسى ، واعتقد أن الإصلاح لهذا الخلل هو وحده القادر على إصـلاح الأحوال عامة ، ولا طريق لإصـلاح الفساد فى دنيا السـياسة إلا القوة فـآمن بهذا المبدأ . . . ولـما جـاء أبو العلاء نظر إلى المشكلة نفسـها من جميـع الزوايا ، فإذا به يدرك أن الأشياء جـميعهـا قد اختلت ، العلاقات الاجتـماعية فى ذلك كالسياسة ، والسـياسة كالتدين ،

وخرج من ذلك كله بأعرض فلسفة تشاؤمية شكية عرفها الأدب العربى »[1] يقول صلاح :

وكنت عندما أحس بالرثاء
للبؤساء الضعفاء
أود لو أطعمهم من قلبى الوجيع[2]

وها هو ذا القحط يدمر النفوس ، ويجعلها أداة طيعة فى يد إبليس :

ويمشى القحط فى الأسواق ،
يجبى جزية الأنفاس
من الأطفال والمرضى
حقيبته بلا قاع ، فلا تملأ إذ تعطى
ورغبته بلا رى ، فلا تسكت أن تسأل
وخلف القحط يمشى تحت
ظل البيرق المرسل
جنود القحط ، جيش الشر والنقمة
خلائقهم مشوهة
كأن الذيل فوق الرأس
يقود خطاهم إبليس ، وهو وزير

(١) د إحسان عباس من الذى سرق النار ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠ ، صـ ٥٢ .

(٢) مأساة الحلاج ، صـ ٢٤

ملك القحط

وليس القتل والتدجيل والسرق

وليس خيانة الأصحاب والملق

وليس البطش والعدوان والخرق

سوى بعض رعايا القحط

جند وزيره إبليس

تعالى الله قد يأنف أن ينظر

في مرآتنا ذاته[1]

ثم ها هو ذا الجوع قد أودى بحياة سيدة طيبة ، وجعل ابنها طالب العلم الفذ ، يمقت الكتب ، وينعى شبابه الذى أنفقه فى دور الوراقين . . لم يجده العلم نفعاً ، لم يوفر له ما يكفيه ويكفى أمه المريضة . فتحول من عنصر طيب إلى عنصر فاسد لا يفكر إلا فى الشر والتدمير ، فقبض عليه وأدخل السجن :

لما كنت صغيراً وبريئا

كانت لى أم طيبة ترعانى

وترى نور الكون بعينى

وترانى أحلى أترابى ، أذكى أخدانى

(١) مأساة الحلاج ، صـ ٢٤

فلقد كنت أحب الحكمة

أقضى صبحى فى دور العلم

أو بين دكاكين الوراقين

. . . .

كانت أمى تجمع كسرات الخبز

وفضل الثوب

من بعض بيوت التجار

وأنا طفل لاهمة لى

إلا فى هذا اللغو المأفون

مرضت أمى ، قعدت عجزت ، ماتت

هل ماتت جوعاً ، لا هذا تبسيط ساذج

يلتذ به الشعراء الحمقى والوعاظ الأوغاد

حتى يخفوا بمبالغة ممقوته

وجه الصدق القاسى

أمى ما ماتت جوعاً ،

أمى عاشت جوعانة

ولذا مرضت صبحاً ،

عجزت ظهراً ، ماتت قبل الليل[1]

(١) مأساة الحلاج ، ص ٧٠ - ٧٢ .

وفوق الفقر المادى هناك فقر أشد فتكا بالنفوس ، ذلك هو فقر الروح ، الذى يزرع الحقد فى النفوس ، ويحرم الناس من الطمأنينة واليقين :

ليس الفقر هو الجوع إلى المأكل ، والعرى
إلى الكسوة .
الفقر هو القهر
الفقر هو استخدام الفقر لإذلال الروح
الفقر هو استخدام الفقر لقتل الحب
وزرع البغضاء
الفقر يقول لأهل الثروة
أكره جمع الفقراء
فهم يتمنون زوال النعمة عنك .
ويقول لأهل الفقر
إن جعت فكل لحم أخيك[1]

لكننا فى زماننا هذا قد جمعنا فقر الروح إلى فقر المادة :

إن كانت شارة ذل ومهانة
رمزاً يفضح أنا جمعنا فقر الروح
إلى فقر المال . . .[2]

(١) مأساة الحلاج ، صـ ١٠٦ - ١٠٧ .

(١) مأساة الحلاج ، صـ ٣٥ .

وهناك فوق ذلك ، الفساد السياسى ، وجبروت السلطة ، حيث السجن والقهر ، والظلم ، والحرية المفقودة :

والمسجونون المصفودون يسوقهم شرطى
مذهوب اللب
قد أشرع فى يده سوطاً لا يعرف
من فى راحته قد وضعه
من فوق ظهور المسجونين الصرعى قد رفعه
ورجال ونساء قد فقدوا الحرية
تخذتهم أرباب من دون الله عبيداً سخرياً
يا شبلى
الشر استولى فى ملكوت الله
حدثنى .. كيف أغض العين عن الدنيا
إلا أن يظلم قلبى[(١)]

لكن الشبلى بنزعته السلبية يرى فى كلام الحلاج فضولا ، فالشر قديم فى الكون ، وهل صلح الزمان فى أى وقت ، حتى نثور هذه الثورة من أجل فسادنا الحالى ؟ !

الشبلى ← ياحلاج
الشر قديم فى الكون

(١) مأساة الحلاج ، صـ ٢٣

الشر أريد بمن فى الكون

كى يعرف ربى من ينجو ممن يتردى

وعلينا أن يتدبر كل منا درب خلاصه[١] .

فيزلزل كلام الشبلى عقيدة الحلاج ، ويجعله موزعا بين عالمه الحالم الهادىء ، وبين عالم الناس الطافح بالمخازى والمساوىء ، الحلاج إنسانى النزعة بمعنى الكلمة ، ولا يمكن أن يتخلى عن نزعته ، ولكن ، ماذا يفعل ؟ !

الحلاج ← ياشبلى

دعنى أتأمل فيما قلت الآن

ها أنت تزلزلنى فى دارى

والسوق يزلزلنى أن أترك دارى

كلماتك تجذبنى يمنه . . .

وعيونى تجذبنى يسره[٢] .

وهذا الحوار القائم على التساؤل لايكاد ينبىء بيقين حقيقى وإن بدا منه أن الحلاج يؤمن بنقيض ما يقول صاحبه . . وأزمة الحلاج الحقيقية أنه لا يستطيع الخلاص من وجده الصوفى ، وهو يعلم مدى المفارقة بين

(١) مأساة الحلاج ، صـ ٢٦

(٢) مأساة الحلاج ، صـ ٢٦

تطلعه وعجزه ، وهو يقـدم على الخروج إلى الناس ودعوتهم إلى الصلاح ، وكان ذلك امتداداً لحياته الروحية ووجده الصوفى[1] . .

فيذكره الـشبلى بالخرقة رمز الانخلاعَ من الدنيـا ، فالصوفى الحق هو من يستوحش من الناس ويأنس بالله . فيـثور الحـلاج على كلامه ، إذ لا ينبغى أن تكون الخرقـة ستاراً يحجبه عن معـاناة الناس ، وإن كانت كذلك بحكم رسوم الطريقة ، فليـخلعها الحلاج فى مرضـاة الله ، وخلع الخرقة معناه التجرد عن طريق الاستسرار :

الحلاج ← تعنى هذى الخرقة

إن كانت قيداً فى أطرافى

يلقينى فى بيتى جنب الجدران الصماء

حتى لا يسمع أحبابى كلماتى

فأنا أجفوها أخلعها يا شيخ

إن كانت شارة ذل ومهانة

رمزاً يفضح أنا جمعنا فقر الروح

إلى فقر المـال

فأنا أجفوها ، أخلعها ياشيخ

إن كانت ستراً منسوجاً من إنا نيتنا

كى يحجبنا عن عين الناس ،

فنحجب عن عين الله

(١) د . عبد القادر القط : المسرحية : صـ ١٣٢ .

فأنا أجفوها ، أخلعها ياشيخ
يارب اشهد
هذا ثوبك
وشعار عبوديتنا لك
وأنا أجفوه أخلعه فى مرضاتك
اشهد
يارب اشهد(١) .

وها هو ذا الحلاج قد خلع الخرقة ، وهو يعلم تماما نهاية هذه المغامرة التى يقدم عليهـا ، يعلم أنه سيصبح هدفاً للاضطهـاد والتعذيب ، لكن ، لابأس ! ثم يجد الحلاج نفـسه أمام حيرة أكبـر : ما هو المنهج الإصلاحى الذى يسير عليه ؟ هل يدعو الـناس إلى الثورة . . أم يدعوهم إلى المحبة ؟ أو هل يرفع سيفه . . أم يرفع صوته ؟ !

الحلاج ← لا أبكى حزنا ياولدى ، بل حيرة
من عجزى يقطر دمعى
من حيرة رأيى وضلال ظنونى
يأتى شجوى ، ينسكب أنينى
هل عاقبنى ربى فى روحى ويقينى ؟
إذ أخفى عنى نوره

(١) مأساة الحلاج صـ ٣٥ .

أم عن عينى حجبته غيوم الألفاظ المشتبهة

والأفكار المشتبهة ؟

أم هو يدعونى أن أختار لنفسى ؟

هبنى اخترت لنفسى ، ماذا أختار ؟

هل أرفع صوتى ؟

أم أرفع سيفى ؟

ماذا أختار؟

ماذا أختار ؟[١]

فالحلاج شخصية مركبة تتنازعها كثير من الحوافز ، لكنها جميعا تظل مرتبطة ، بوضعه الصوفى ، فهو يريد أن يخرج من عزلته الصوفية إلى الناس يدعوهم إلى إصلاح مجتمعهم وهو فى الوقت نفسه غير موقن بخير السبل إلى تلك الدعوة ، أتراها تكون بالكلمة أم بالسيف ؟ وهو حين يخرج إلى الناس ليدعوهم بالكلمة لا يستطيع الخلاص من حذر الصوفى وتوجسه من خوض غمار الحياة . . .[٢]

ثم اختار الحلاج ، الكلمة القوية الصادقة التى لا تخشى فى الحق لومة لائم ، وهو لا يهتم كثيراً بأن تجد كلمته أنصارا فى الزمن الحالى ،

(١) مأساة الحلاج صـ ٧٥ ، ٧٦

(٢) د عبد القادر القط المسرحية ، صـ ١٣٠ .

المهم أن تبقى ، ولربما هيأ لها الله في زمن قادم من يستعذبها فؤاده ، ويكون من أهل السلطة والرأى ، فيرعاها ويدعو إليها :

لا أملك إلا أن أتحدث

ولتنقل كلماتى الريح السواحة

ولأثبتها فى الأوراق شهادة إنسان

من أهل الرؤية

فلعل فؤادًا ظمآنا من أفئدة وجوه الأمة

يستعذب هذى الكلمات

فيخوض بها فى الطرقات

يرعاها إن ولى الأمر

ويوفق بين القدرة والفكرة

ويزاوج بين الحكمة والفعل[1]

لكن ما هى هذه الكلمة التى كان الحلاج يريد أن يقولها ؟ ! هل يقول للناس : صوموا ، صلوا ، أطيعوا الحكام حتى لو سملوا أعينكم ، كما يقول الوعاظ ؟ ! وما هى القضية الرئيسية التى تعالجها هذه الكلمة ؟ ! فى رأيى ، أن عبد الصبور أراد أن يعالج بالكلمة أخطر قضية يمر بها العربى فى الوقت المعاصر ، وهى قضية فقدان الهوية ، وضعف الثقة

(١) مأساة الحلاج صـ ١٠٥ ، ١٠٧

بالنفس واللامبالاة ، والتـخاذل أمام الواقع الفاسد المهتـرىء ، حتى ماتـ
العزائم ، وأصبحنا مسخا شائها ، فأراد عبد الصبور متقنعا بقناع الحلاج .
أن يصرخ فى هذه الأمة الميتة ، ليبعث فيها الروح :

الحلاج : هل تسألنى ماذا أنوى ؟
أنوى أن أنزل للناس
وأحدثهم عن رغبة ربى
الله قوى ، يا أبناء الله
كونوا مثله
الله فعول يا أبناء الله
كونوا مثله
الله عزيز يا أبناء الله . . .(١)

أراد الحلاج - صـلاح عبد الصبـور - أن يمتلك معجزة كلمـة المسيح عليه السلام ، تلك الكلمة التى تبعث الروح فى هذا الرميم ، وتضرم النار فى هذا الهشيم . فهو يريد مجتمـعاً قوياً عزيزاً لا يعرف الكسل والتخاذل ، ترفرف فوقه راية العـدل ، فلا يغتر الحاكم بسلطانه ، فيـستبد ويبطـش ، بل يوازن بين القدرة والحكمة فيكون عـادلا رحيما بالنـاس عطوفاً عليهم :

العدل مواقف

(١) مأساة الحلاج صـ ٣٤ .

العدل سؤال أبدى يطرح كل هنيهة

. . . .

العدل حوار لا يتوقف

بين السلطان وسلطانه[1] .

يعـيـش الناس فى هذا المجتـــمع فى تكافل وتـراحم ، وتواصل ، يمرحـون تحت عبـاءة الشـمس كالحـمـلان الوديعة ، لا يعـرفـون الحقـد والبغضـــاء :

أبو عمر : هل تبغى أن يضع المسلم

فى عنق المسلم سيف الحقد

الحلاج : لا . . يا سيد

بل أبغى لو مد المسلم للمسلم

كف الرحمة والود[2]

ولهـذا راح الحلاج يرسل رســائله إلى أحـبائه المخلصين من الأمـراء والقواد الذين لا يرضون عن فساد عصـرهـم ، وطغيان حكامهم ، وما كان يأمل من وراء رسائله ، إلا أن تؤثر فـيهم ، فإن آل إليـهـم الأمر ذات يوم عملوا بما جاء فيها :

(١) مأساة الحلاج . صـ ٨٩ .

(٢) مأساة الحلاج صـ ٢٩ .

الشبلى ← قل لى ياحلاج

أوثقت بأن وجوه الأمة ممنْ تعرف

إن ولوا ظلوا أهل مودة ؟

الحلاج ← لا يعنينى أن يرعوا ودى أو ينسوه

يعنينى أن يرعوا كلماتى[1]

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : هل حققت كلمة الحلاج أهدافها عند صلاح عبد الصبور ؟ أرى أنها أخفقت فى تحقيق أى شىء ، فالحلاج البطل الشعبى الذى يسجن ، ويعذب من أجل فقراء الناس ، يشهد عليه هؤلاء الفقراء فى ساحة المحكمة بالكفر من أجل دينار واحد ، فباعوه بثمن بخس وكانوا فيه من الزاهدين :

صفونا . . . صفا . . صفا

الأجهر صوتا والأطول

وضعوه فى الصف الأول

ذو الصوت الخافت والمتوانى

وضعوه فى الصف الثانى

أعطوا كلا منا دينارا من ذهب قانى

برَّاقاً لم تلمسه كف من قبل

قالوا : صيحوا زنديق كافر

صحنا زنديق كافر

(١) نفسه : ص ٩٥

قالوا : صيحوا فليقتل إنا نحمل دمه فى رقبتنا

فليقتل إنا نحمل دمه فى رقبتنا

قالوا : امضوا فمضينا

الأجهر صوتا والأطول

يمضى فى الصف الأول

ذو الصوت الخافت والمتوانى

يمضى فى الصف الثانى[1]

وهكذا راح الحلاج ، البطل الشعبى ضحية كلماته ، قتله الضعفاء الفقراء ، بالكلمة أيضا ، بشهادتهم المزورة من أجل لقمة العيش . ولعل صلاح عبد الصبور أراد أن يصور بشاعة الفقر فالحلاج بطلهم ، والمتحدث بلسانهم والمضحى بنفسه فى سبيل سعادتهم لكنهم لا يستطيعون مقاومة إغراء الدينار ليشتروا ما يملأ خواء بطونهم الجائعة فشهدوا شهادة فاجرة . . فكيف يمكن تحرير هذه النفوس ؟ ! كيف يتخلصون من الخوف ؟

إن بلادة القاعدة العريضة من الناس ، وعدم مبالاتهم بالأمور تصيب الإنسان الغيور بالإحباط واليأس فى الإصلاح . كيف يمكن بعث الروح فى هذا الرميم ؟ !

(١) مأساة الحلاج . صـ ١٠ ، ١١

في عصر ملتاث ، قاس ، وضنين
لن يصنع ربى خارقة أو معجزة كي ينقذ
جيلا من هلكى
قد ماتوا قبل الموت .[1]

إن الواقع الذى نحياه ، يقتل كل فكرة متحمسة للإصلاح ، ففساد المجتمع أكبر من أن يصلحه صوت واحد ، وصاحب النفس السامية يعيش فى هذا الواقع غريباً كصالح فى ثمود ! . . فلا يجد من يسمعه ويعى عنه ، ولا يجد من يشعر بآماله وآلامه ، حتى يفكر هو الآخر فى أن يجرب لا مبالاة الناس ، ويعيش لذاته فقط . ويرى أحيانا أنه من العقل والحصافة ، أن يلزم الصمت ، ولا يبوح بأفكاره لأحد مهما كان قريباً إليه :

لا أدرى ، وعلى كل ، فالأيام غريبة
والعاقل من يتحرز فى كلماته
لا يعرض بالسوء
لنظام أو شخص أو وضع أو قانون أو قاض
أو وال أو محتسب أو حاكم[2]

(١) مأساة الحلاج صـ ٣٢ .
(٢) مأساة الحلاج . صـ ٥١

ولا يخفف من حسرة الشاعر أو المصلح سوى أمله فى المستقبل ، من يدرى . . قد يخلق الله من أصلاب هؤلاء الموتى جيلا حيا يقدر قيمة هذه الكلمة ، ويعمل لتحويلها إلى واقع !

قد خبت إذن ، لكن كلماتى ما خابت

فستأتى آذان تتأمل إذ تسمع

تتحدر منها كلماتى فى القلب

وقلوب تصنع من ألفاظى قدرة

وتشد بها عصب الأذرع

ومواكب تمشى نحو النور . ولا ترجع

إلا أن تسقى بلعاب الشمس

روح الإنسان المقهورة الموجع[١]

هكذا أراد صلاح عبد الصبور أن يعبر عن معاناته كشاعر وإنسان نبيل يحمل فوق رأسه آلام ، وهموم جيله ، ففسر الجانب القلق من حياة الحلاج على أنه قلق وجودى ، وجعل ثورته اجتماعية من أجل تخليص هذا الجيل المطحون ، من أشد الآلام فتكا بروحه ، أعنى ألم الفقر الروحى ، والخواء الداخلى . ثم بحث فى قضية الشر والظلم ، فصور من خلال ذلك الحقيقة الشائهة للواقع المعاصر ، فالحلاج عنده بطل

(١) مأساة الحلاج . صـ ٢٩ ، ٣٠ .

شعبى قدم روحه طائعا مختـاراً فى سبيل جموع الشعب واتخذ من الكلمة سـلاحا له ، لكن الكلمـة لم تؤت ثمـارها ، ولن تؤتيهـا الآن ، والأمل معـقود على الجيل الجـديد الذى لم يولد بعد ، فلعل الله يجـعل فيه فـئة كثيرة يعرفون ما للكلمة من خطر .

بهذا نسـتطيع أن نقول إن صلاح عبـد الصبور الذى كان واقـعاً تحت تأثيـر فلسـفة « بشـر الحـافى » فى الهروب مـن مواجـهة الـعالم الحـسى بمتناقضاته ، والـتعلق بالصمت القاتل من إبطال كل الحـواس ، والانفصال التام عن العالم :

احرص ألا تسمع

احرص ألا تنظر

احرص ألا تلمس

احرص ألا تتكلم

قف . . . . !

قد تجاوز هذا الموقف السلبى فى « مأساة الحلاج » نحو موقف إيجابى منفتح على الحياة ، موقف التمـرد والثورة والاستشهاد من أجل الإنسان ، فاقترن الانتقال إلى الدراما عنده بموقف فكرى ثورى .

ومع ذلك فإن « المسرحية لم تسـتطع أن تقدم لنا مأساة تعكس أمامنا المشاكل ، وتعـمق الصراعات كـما هو مفـهوم فى التراجـيديا . . . وهذا بدوره أدى إلى الشـعـور بأن الحلاج لا يعـانى مـأساة وإنمـا هو أشبـه بمن يتـعرض لمؤامـرة . . وربما كـان السـبب فى ذلك هو توزع المسـرحيـة بين

محــورين ، فالحلاج إما أنه صــوفى ذو نزعة عملية اجـتماعيــة ، وإما أنه زعيم من زعــماء الفقراء ذو رداء صــوفى . والمسرحيــة لا ترسم له صورة مستقيمة واضحة بحيث بدت كمؤامرة لاغتيال رجل صالح[1] .

ومما يعــاب على البناء المسرحى لمأســاة الحلاج ، تلــك التقــسيــمات الثلاثية التى تشهدها فى كل منظر تقريبــاً ، فعندنا الثلاثة المتسكعون الفلاح والتــاجــر والواعظ ، وعندنا الحــلاج والشــبلى وإبراهيم بن فــاتك وعندنا الحلاج مع السجينين ، وعندنا القضاة الثلاثة - ولو أن الشاعر تخفف قليلا من هذه الثلاثيات ، لخفف بالتالى من غلبة الطابع (السيمترى) على تصميم البناء المسرحى . . كما أن الشــاعر استبعد العنصر النســائى من المسرحية ، فى حين أن توظيف المرأة لخـدمة مراحل الحـدث من شأنه تعـميق إنســانية البطل[2] .

كما عــرض عبد الصبور فى مســرحيته لأهم أفكار الحلاج الصــوفية ، فالحلاج من القــائلين بأن « الله خلق آدم عليه السلام على صــورته ليتجلى فيه حب الذات للذات ، فكان الحب هو علة الوجود الأولى ، والسبب فى الكثرة الوجودية ، ثم شاء الحق سبحانه أن يرى ذلك الحب الذاتى ماثلا فى صورة خارجــية يشاهدها ويخاطبهــا ، فنظر فى الأزل ، وأخرج من العدم صورة من نفسه لها كل صفاته وأسمائه ، وهى آدم الذى جعل الله صورته

(١) محمود عبد العزيز الموافى : المسرحية الشعرية بعد شوقى ، نسخة مخطوطة لرسالة الدكتوراه ، بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧ ، صـ ١١١ .

(٢) جلال العشرى ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ ، صـ ١٨٩ .

أبد الدهر ، ولما خلق آدم على هذا النحو عظمه ، ومجده واختاره لنفسه ، وكان من حيث ظهور الحق بصورته فيه وبه هو هو . . . .[1] ، ولقد عبر صلاح عن هذه الفكرة بقوله :

أراد الله أن تجلى محاسنه ، وتستعلن أنواره

فأبدع من أثير القدرة العليا مثالا .

صاغه طينا

وألقى بين جنبيه ببعض الفيض من ذاته

وحلاه وزينه ، فكان صنيعه الإنسان

فنحن له كمرآة ، يطالع فوق صفحتها

جمال الذات مجلوا ، ويشهد حسنه فينا

فإن تصف قلوب الناس ، تأنس نظرة الرحمن

إلى مرآتنا ويديم نظرته فتحيينا

وإن تكدر قلوب الناس يصرف وجهه عنا

ويهجرنا ويجفونا[2] .

والحلاج - كعادة المتصوفة - من المؤمنين بضرورة العذاب الحسى ، ولزوم الرياضة الشاقة ليفنى الجسم تماماً فلا يبقى له حظ ، ويعيش الصوفى

(١) طواسين الحلاج : ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) مأساة الحلاج . صـ ٤٣ .

بروحه التى يعكف على تصـفيتهـا وتطهيرها ، والمتصـوفة لذلك يرون فى الأذى الجسمانى نعمة كبيـرة ، ودليلا على رعاية العهد مع الله ، فمن كمال المحبـة أن يداوم الحبـيب على اختبـار إخلاص عـاشقه ، فـيبـتليه بالأذى الجسمانى فيـفرح الصوفى لذلك ، ويراه من دلائل المحبين . . « لما أدخل الشبلى المارستان ، فدخل عليـه بعض أصدقائه ، فقال لهم : أيش أنتم ؟ فقالوا: نحن قوم نحبك فأخذ يرميهم بالآجر، فهربوا ، فقال: ياكذابون ، تدعون مـحبـتى ، ولم تصبروا عـلى ضربى ؟ !(1) » وفوق الصـبر على الضرب ، هناك التلذذ به ، كما حـكى عن ذى النون رحمه الله أنه قال : دخلت على مريض أعوده ، فبـينما كان يكلمنى أنَّ أنة ، فقلت له : ليس بصادق فى حبـه من لم يصـبر على ضـربه ، فقال : بل ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه(2) . . . .

أما إن ابـتلاه فى روحـه ، فغـاب عنه وجفـاه ، فتلك هى مـحنـة الصوفى التى تـزلزل كـيانه ، وتجعله يشك فى أهليتـه لمقام القرب ، فيبالغ فى تعذيب نفسـه حتى يأتيه الفرج . « والويل لمن يغـيب بعد الحضـور ، أو يهجر بعد الوصل » كما يقول الحلاج وها هو الحلاج يستبشر خيراً حين أشبعه الجلاد ضرباً :

يـــــــــــــــــــــــــــارب

لو لـم أسـجن ، أضـرب ، وأعـذب

(1) أبو نصر السراج الطوسى ، اللمع فى التصوف ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٠ ، صـ ٧٧ .

(2) أبو نصر السراج الطوسى ، اللمع نفسه صـ ٧٧ .

كيف يقينى عندئذ أنك ترعى عهد الحب ؟
لكنى الآن تيقنت يقين القلب
أنك تنظر لى ، ترعانى
مازالت تستعظمنى عينك
مازلت ترانى أخلص عشاقك
عين الله على
وهداياه موصولة
وطرائف نعمته مبذولة
فهنيئا لى
هنيئا لى[1] .

وهو يدعو ربه أن يجعل عذابه فى بدنه دون روحه :

عاقبنى يامحبوبى
إنى بحت وخنت العهد
لا تغفرلى ، فلقد ضاق القلب عن الوجد
لكن عاقبنى عقاب الخصم خصيمه
لا كعقاب المحبوب حبيبه

(١) مأساة الحلاج صـ ٦٦ .

لا تهـــجـــرنى لا تصـــرف عـنى وجـــهك

لا تـقـــــــــــتـل روحـى بـــدلالـك

اجـــعـل بدنى النـاحل أو جلدى المـتـــغـــضن

أدوات عـــــــــــقـــــــــــابـك[1] .

كما عبر عبد الصبــور عن فكرة اختص بها الحلاج دون سائر المتصوفة أعنى فكرة تمنى الموت والإلحاح فى طلبـه ، حتى نسبه البـعض إلى مذهب الخلاص المسيحى الذى يؤكد أنه لا سعادة إلا فى خلاص الروح من حجابه وهو الجســد ، ولهذا يسعى لتـحطيم هذا الحجاب وكل حـجب أخرى من الشعائر تقف حاجزاً بينها وبين حقيقتها المطلقة[2] .

كـــــــــــان يـقـــــــــــول

إذا غـــسـلت بالدمـــاء هـامـــتى وأغـــصنى !

فــــقـــد تـوضـــأت وضــــوء الأنـبـيـــاء .

كـــان يريـد أن يموت ، كى يعـــود لـلســـمـــاء

كـــــأنه طـفل ســـــــمــــــاوى شـــــريد

قــــد ضل عن أبيــــه فى مــــتـــــاهة المســـاء

كـــــــــــان يـقـــــــــــول :

(١) مأساة الحلاج . صـ ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) د. عبد القادر محمود ، الفلسفة الصوفية فى الإسلام صـ ٣٥٦

كأن من يقتلنى محقق مشيئتى

ومنفذ إرادة الرحمان

لأنه يصوغ من تراب رجل فان

أسطورة وحكمة وفكرة

كان يقول :

إن من يقتلنى سيدخل الجنان

لأنه بسيفه أتم الدورة

لأنه أغاث بالدماء إذ نخس الوريد

شجيرة جديبة زرعتها بلفظى العقيم

فدبت الحياة فيها ، طالت الأغصان

مثمرة تعطى دون موعد ، بلا أوان

وحينما أسلمه السلطان للقضاه

ورده القضاة للسلطان

ورده السلطان للسجان

ووشيت أعضاؤه بثمر الدماء

تم له ما شاء

هل نحرم العالم من شهيد ؟ [(١)]

(١) مأساة الحلاج . صـ ١٤ .

وتجدر الإشـارة إلى أن فكرة تمنى الموت ، على أنه المخلـص الأوحد للروح من همومها وآلامها ، موجودة لدى كـثير من شعرائنا المعاصرين من بينهم صلاح عبد الصبور نفسه ، الذى يقول :

تعالى الله ، أنت وهبتنا هذا العذاب ، وهذه الآلام

لأنك حينما أبصرتنا لـم نحل فى عينيك

تعالى الله هذا الكون موبوء ولا برء .

ولو ينصفنا الرحمن عجّل نحونا بالموت

تعالى الله هذا الكون لا يصلحه شيء

فأين الموت ، أين الموت ، أين الموت ؟[١]

ونجد لهذه الفكرة صدى كبيراً فى شعر الشابى ، فهو القائل :

إلى الموت يا ابن الحياة التعيس ، ففى الموت صوت الحياة الرخيم

إلى الموت ! إن عذبتك الدهور ، ففى الموت قلب الدهور الرحيم

إلى الموت ! فالموت روح جميل ، يرفرف من فوق تلك الغيوم

فروحا بفجر الخلود البهيج ، وما حوله من بنات النجوم[٢]

وهو الذى يضرع إلى الموت أن يأخذه فيقول مسترحما :

. . . .

(١) صلاح عبد الصبور ، أحلام الفارس القديم ، قصيدة ، مذكرات الصوفى بشر الحافى .

(٢) أبو القاسم الشابى ديوان أغانى الحياة ، قصيدة ، إلى الموت .

خذنى إليك ! فقد ظمئت لكأسك الكدر الأمر

خذنى ! فقد أصبحت أرقب فى فضاك الجون فجرى

خذنى ! فما أشقى الذى يقضى الحياة بمثل أمرى[1]

ونختم الحديث عن مسرحية صلاح عبد الصبور بهذا السؤال : هل كانت للحلاج نزعة اجتماعية إصلاحية حقاً ؟

فى رأيى أن ما يفهم من سيرة الحلاج لا ينهض دليلا على نزوعه لحركة اجتماعية أو فكرة سياسية مكتملة ، بحيث يمكن اعتباره مصلحاً اجتماعياً ، أو متمرداً سياسياً لأن نزول الحلاج إلى الناس كان عن شعور روحى ، لا عن شعور اجتماعى ثورى .

« . . . وعلى مقتضى هذا الفهم نرى أن ما فهمه عبد الصبور ، أو غيره لا يتساوى مع حقيقة دعوة الحلاج ، ولا يعبر عن شخصيته الروحية . . . وتسقط محاولة عبد الصبور فى أن يرفع إلينا قيم الحرية والعدل والتقدم ، من حياة هذا الصوفى الكبير ، الذى ما كاد ينزل إلى الحياة حتى احتواها ، وكفر بناسها وتيقن أنه غريب عنها[2] . . .

(ب) عند زكى أقطاى :

إن كان صلاح عبد الصبور لم يسبقه أحد من شعراء العرب قديماً وحديثا فى كتابة عمل شعرى كامل عن الحلاج ، فالأمر ليس كذلك عند

(١) أبو القاسم الشابى نفسه قصيدة إلى الموت

(٢) السحرتى . دراسات نقدية ، صـ ٣٢٠ .

زكى أقطاى ، فهناك من بين شعـراء الترك الأقدمين ، من يدعى «مريدى» نظم منظومـة بعنوان « حلاج نامـه » كمـا اطلعت فى مكتـبة السليـمانيـة باستانبول على منظومة شعـرية بعنوان « داستان منصور نامه » أى «أسطورة كتاب منصـور » لمن يدعى محمد نيـازى مصـرى ، المتلخص بـ « مصرى أفندى » وهى عبـارة عن مخطوطة تقع فى اثنتين وثلاثـين ورقة من القطع المتوسط ، تحت رقم 3572/2 تصوف ، كتبت بخط نسخ جميل كما كتبت العناوين بمداد أحمـر وبهوامش بعض الصفـحات تعليقات وشـروح لبعض الرموز . ولـم يذكـر كاتبـها اسمه واكتـفى بأن قـال : « تم الكتاب بعون الملك العزيز الوهاب على يد الفقير ، غفر ذنوبه لسنة خمسين ومائة وألف من شهر المحرم الحرام من يوم الأربعاء فى اليوم التاسع والعشرين » .

ولا تختلـف صورة الحلاج عند أقطـاى كثيـراً عنها لدى « مـصرى أفندى » ، فها هو ذا يتغنى بتحفة العشـق التى أتحفه بها الحـق سبحانه ، فصار لا يعرف شـيئا عن دنيا الناس ، وما يخوضون فيـه من أمر الصغائر والكبائر ؛ لأنه مستغرق فى مشاهدة أنوار التجلى :

أنا متعلق بالنور الأول ، بعينى وقلبى وروحى ،

ولا أعرف لى ذنبا كسبته ، إلا أننى حلقت فى الملكوت ،

أنا العاشق الأكبر لرب الخلود ،

وكتابى لا يعرف الصغائر ولا الكبائر ،

لا يعرف إلا أصوات الحق التى تجلجل فى ربابى .

أنا قدرة الخالق . . أنا السر المخلوق

وبقلبى من تجلياته سر يصان

معنى الوجود ومفهومه من لدنه

أنا شمعة « ما وراء » و « ما سوى » وما « عكس »

أنا الكعبة ، أنا قبلة النور التى لا تخمد نارها

هذا جمال الكمال ، وكمال الجمال .

كل جزء خرج من الكل وإليه يعود

حينئذ يخمد اللهيب شيئا فشيئا .

وما دام قد بلغ هذه المرتبة فى العشق ، فالأمور عنده سواء ، فلا يفرق بين البقاء والفناء ، والبعد والقرب ، فكلها ظواهر عارضة ، أما الحقيقة فهى تجلى الحق ، ومن يعرف حقيقة نفسه ، فكأنما عرف حقيقة الحق ، هذا ما باح به الحلاج فى مجلس ضم كثيراً من شيوخ الشريعة والحقيقة :

فى البقاء فناء ، وفى الفناء بقاء ياصحاب

وأى جدوى للزمان والمكان والبعد والقرب يا أولى الألباب ؟

ليس هناك إلا تجلى القدرة .

ليس إلا جلجلة صوت الحق يا أهل الفطنة . .

أنا هو .. وهو أنا فأنا الوجود والعدم

عرفت حقيقتى فقلت أنا الحق

فتنبهوا يا أهل الغفلة « ما ثم فرق »

ثم ما أقرب الشبه بين صيحة غرور الحلاج عند مصرى أفندى :

« جملة الأشياء فى ذاتى وصور إسرافيل فى صوتى » ، وصيحته عند أقطاى :

أنا عالم السر والغيب

أقول أنا الحق فى كل صوب

صوت الخلود من بعيد يدعونى

ومن الشفق نور يحدونى .

ولابد أن يقاسى الصوفى فى طريقه من الحيرة الواجفة ، التى تطيح أحيانا بيقينه ، « فيعانى قلقاً لا يرحم أبداً ، ولا يقبل أمراً ، ولا يبقى أحداً ، ويكابد شوقا أضرمته المحبة ، فنفضت العيش ، وسلبت السلوة ، ولم ينهها معرض دون اللقاء »[1] يقول أقطاى :

جعل الله تجلى كماله مع الحيرة

والتيه فى بلاد مجهولة سنين عدة

(١) حسن بن محمد الفركاوى القادرى شرح منازل السائرين ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، ١٩٥٣ ، صـ ٩٧ .

وجعل الخلود فى الاحتراق والألم

فلا يرى العبد أثراً للفناء والعدم

أجــل ،

هذا قانون الحق وتلك هى الأبدية

لكن حيـرة الحلاج هدته إلى حقـيقة الحـق ، فسكر بخمـر القرب ، ورفعت له الحـجب ، فهيـأ نفسه للقـاء ، ولـم يبق أمامه ألا تقـديم قربان الفـداء :

« يا حبيـبى ! يا عشقى وحبى الأكبـر . . أنا قادم إليك . . . . يامن تعرفـون حبـيبى ! يا من تعـرفون الحق ! . . روحى عندكم . يا مـلائكة السماء ، ويا غرباء الأرض ، وياقرباء حبيبى الأكبر! . . روحى عندكم . . يامقربين يا محيرين . . ياهائمين . . ارفعوا الحجب . . أنا قادم إليكم .

لم يعـد أمـام الحـــلاج إلا أن يهـدم الهـيكل ، ويـحطم الصنم ، لينطلق من سـجنه ، وليطوف بـقصـر البللور فى جـذبه ، ويرشف بحـر العشـق مع حمائم أيك الحـضرة ، هنالك يدرك الخـلود الحقيـقى ، ويهنأ ببلوغ المراد :

السجن الحق ياصاحبى هو جسمك

يجذبك للطين ويمسك !

فمن أفناه وأحيا روحه . . . .

شاهد فى قصر البللور طيفه !

فهيا ننسخ الصورة

ونرشف البحر مع الحمائم قطرة قطرة

للروح فى كل نفس عالمان

فيهما ننشد يا « هو »

ثم يصيح فى الخليفة والوزير والقضاة ، والحضور يدعوهم إلى قتله وتخليصه

كلا . . كلا . . لن أزدجر !

أقول « أنا الحق » ولا وزر !

وكلامى حق

وكلامى حق

لا أعصى الحق ، وأتبع الخلق ، تلك هى الحكمة

ولا أذل لأحد ، لرفع ما تسمونه نكبة .

ياطالما قلت اقتلونى ! . . فالقتل فيه وصولى !

وهذا هو ربيع الوصول الأزلى مع حبيبى .

وفى آخر ليلة له ، أطلق سراح المسجونين معه فى السجن ، فهربوا جميعاً ، وأبى أن يهرب معهم ، فلما فزع الحراس ولم يجدوا فى السجن إلا إياه ، سألوه :

كبير الحراس ← أين المسجونون يا منصور ؟

منصور ← أطلقت سراحهم .

كبير الحراس ← ولماذ لم تهرب معهم ؟

منصور ← لى مع خالقى أمر ، ومشيئة الحق ستنفذ هنا

ثم نفذ فيه الحكم ، فنال ما تحرق شوقاً إليه . . .

ثمة شيء آخر يتفق فيه الشاعران ، ألا وهو المناجاة ، فقد أورد «مصرى أفندى» فى منظومة ، مناجاتين ، كما أورد أقطاى فى مسرحيته أربع مناجات ، منها ثلاث لمنصور ، وواحدة لجلفدان . . « والمناجاة » أو «إلهى» فن قديم فى الأدب التركى الديوانى . . . وفيه يثنى الشاعر على الله ، ويذكره بآلائه ، ويرفع ضراعته ، ويسأل حاجته ، وجرت عادة معظم الشعراء القدامى على أن يستهلوا دواوينهم بالمناجاة وأغلبها كان يأخذ شكل الغزل أو القطعة أو المثنوى . وكثيراً ما كانوا يضمنون مناجاتهم بآيات من القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف . . وممن برع فى هذا الفن من الشعراء ، سنان باشا (١٤٤٠-١٤٨٦) ، وأشرف اوغلو الرومى (؟ - ١٤٦٩م) ، والبغدادى (؟ - ١٥٥٦م) والسلطان سليمان القانونى - محبى - (١٤٩٤ - ١٥٦٦م) ونائلى (؟- ١٦٦٦م) والسلطان مصطفى الثانى - اقبالى - (١٦٦٤-١٧٠٣م) وغالب لسكوفجلى (١٨٢٨ - ١٨٦٧م) .

والواضح أن الحلاج فى مناجاته عند مصرى أفندى ، يختلف بعض الشيء عنه عند أقطاى ، فما زاد مصرى أفندى عن ذكر صفات الله ، وتمجيده وبلوغ الحلاج غاية مراده بعد القتل . أما أقطاى ، فمتحد بالطبيعة ،

هائم بين أغصانها وأشجارها وثمارها ووردها ، سابح فى أنهارها ، محلق فى سمائها . ولعل الشاعر فى ذلك متأثر بشفافية الرومانسيين ، الذين يتفقون مع الصوفية فى عشق الطبيعة ، والاتحاد بها يقول أقطاى :

فى الغصن الفينان وفى الثرى
وفى ماء النهر إذا جرى
وفى الطرق الطويلة والشعاب
تظهر قدرة الله دون حجاب
أشجار البلوط ، وقباب السماء
والثمار التى تميل بأغصانها فوق الغبراء
والأرض المنتشية مع الفجر بالأنداء
تشرح السر فى جلاء
فى الذرة عالم لى
وفى الغيب سلطان لى
وفى شفق السحر ، ونحل الأصيل
فرحة للورود ولى

ثمة ملحظ آخر فى المناجاة عند أقطاى ، وهو أنه حملها كثيراً من الشكوى والتوجع ، فكانت تصدر عن كبد حرى ، ونفس ملتاعة .

كقوله :

يارب ! دعائى تردده السماء والأشجار

ولوعتى يقاسيها معى النجم السيار

يارب ! رأيت سحر الدنيا فى الربيع فجننت

وجرى بحر الحسن أمامى فارتويت

يارب ! أنا ريشة تدفعها الريح فى مهبها !

وقلبى يرفرف فى سماء ما أرحبها !

آهتى تسمعها قوافل الهجرة

وهى لهلكى العشق الأزلى نغمة ونسمة

ربى وخالقى وإلهى . . أنا وردة فى روضة عشقك القاتل

يارب ! ضقت بحبسى فى مكان مظلم

ولى نواح كنواح البلبل . . يارب فارحم

غير أن هناك اختلافاً كبيراً بين الشاعرين فى أمر الشيخ الذى تلقى عنه الحلاج ، أصول الطريقة . بل لعل زكى أقطاى يشذ فى هذه النقطة عن كل من تعرض لعقيدة الحلاج من شعراء الترك الأقدمين؟ فلقد جعل مصرى أفندى رسول الله إماما للحلاج ، وشيخا مرشداً له ،

جريا على عادة المتصوفة فى إصرارهم على تأكيد تبعيتهم لرسول الله ، واهتدائهم به . أما أقطاى فقد استغل ما جاء فى الآثار عن نسبة جد الحلاج الذى كان يدعى « محمى » إلى « المجوسية » ، فجعله يفاخر بهذه النسبة ، ويباهى بأنه أخذ أصول طريقته عن زرادشت ، أحد أنبياء الفرس قبل الإسلام :

أنا الحق . . حيرنى الحق . . . دلهنى الحق

أنا من أحفاد زرادشت نقلت عنه هذا السر الأكبر

ثم تحدث عن ثنائية الفطرة الإنسانية المركبة من النور والظلام ، وفقا للزرادشتية :

نحن فى حقيقتنا مزيج من النور والظلمة الظلماء

ثم انحسر النور بداخلنا ، وأخذ الظلام فى النماء

وبداخلنا قتال مستمر بينهما

ونحن صرعى خصامهما !

ومرد ذلك أن الشاعر فضلا عن استيعابه للتراث الصوفى وبخاصة تراث «يونس أمره» ، كان واقعاً تحت تأثير الميثولوجيا اليونانية .

ومن الواضح أن مسرحية أقطاى تختلف اختلافاً كبيراً عن مسرحية صلاح عبد الصبور من حيث الفكرة والموضوع ، فمعالجة صلاح لها اجتماعية سياسية ، عالج فيها قضايا الفقر المادى والروحى ، وأبان عن مخازى مجتمعه ، وما يسوده من ظلم وقهر وبطش . فكان الحلاج عنده بطلاً شعبيًا ضحى بنفسه من أجل الفقراء والمساكين . وكان معبراً عن رسالة المثقف الحقيقية فى المجتمع المعاصر ، وضرورة

أن يكسر حجاب العزلة والانطواء، ليـعيش هموم جيله ، ويسعى من أجل خلاص الناس من قيودهم وأغلالهم وهذا مـا يعرف بالالتزام . أما الحلاج عند آقطاى فهو صوفى ، جـذبته أنوار التجلى ، فتعشق جـمال الحبيب ، وعانى فى سبـيل الوصول أشد المعاناة ، حتى ظفـر فى النهاية بالوصول ، بعد أن قـدم روحه قـربانا لمن أحب . كمـا شاركـته جلفدان تلـك المعاناة الصـوفية ، بـعد أن اتخـذت منه إمامـا لها تأتمر بأمـره . فكان آقطاى فى مسرحيته معبراً عن روحانية التصوف التى ظلت مسيطرة على الأدب التركى فى جملته من لدن نشأته ، حتى عهد التنظيمات .

وبرغم اختـلاف الشاعرين فى المعـالجة فإنهـما يتفقـان فى أن الحلاج صريع السيـاسة ، فهو عند صلاح قـد أزعج السلطة ، لتبنيه قضـية الجوع والقـحط والظلم الواقع على مـن لا حول لهم ولا طـول ، وهى قضـيـة القاعدة العريضة من أبنـاء مجتمعنا ، فتخلصت منه السلطة لتسكت صوته وتأمن شره :

صوفى : ياقـوم
هذا الشرطى استدرجه كى يكشف عن حاله
لكن هل أخذوه من أجل حديث الحب ؟
لا بل من أجل حديث القحط
أخذوه من أجلكم أنتم
من أجل الفقراء المرضى
جزية جيش القحط

الأعرج : هذا حق .. فالشرطة خدام السلطان
ما للشرطة والحب ....[1] .

وهو عند أقطاى ، درويش من الواصلين ، له سلطان كبير على قلوب الناس ، مهما اختلفت طبقاتهم ، والدولة تكره من يجتمع الناس حوله فأصحاب السلطة يريدون أن يلتف الناس حولهم وحدهم ، ويعتبرون من يستأثر بحب الناس منافسا لهم فى سلطانهم ؛ ولهذا تخلصوا منه :

الوزير « للخليفة » معلوم يا مولاى أننى أبغى صلاح الدين .
والدولة ومنصور اليوم سلطان بلا ملك ،
ويستطيع غدا أن يعتلى عرش بغداد ، فينتقم
منا ، ويحكم السيف فى رقابنا ، وينشر عقيدته .

الخليفة : كيف ؟ ما معنى كلامك ؟ !

الوزير : يامولاى كل الأرواح والعفاريت عبيد له ،
والناس جميعا تحت تصرفه !

ولاشك أن اختلاف معالجة الشاعرين الموضوعية لفكرة المسرحية ، جعلهما يختلفان فى البناء الدرامى ، فطوع كل منهما أدواته الفنية لخدمة فكرته . وقد حفلت مسرحية أقطاى بالدراما وكثرة الأحداث ، جنبا إلى جنب مع التجربة الصوفية برموزها وظلالها . وكانت مسرحية عبد الصبور سياسية اجتماعية ، حافلة بالجدل الفكرى الذى صاحب تجربة الحلاج الصوفية .

(١) مأساة الحلاج : صـ ٤٨ .

اللغة العليا	جون كوين	ت أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت يوسف الأنطكي
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت لطفي عبد الوهاب / فاروق القاضي / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولي / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت ماجدة العناني
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصرى
تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	ت إبراهيم الدسوقي شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت نخبة
رسالة في التسامح	جون لوك	ت منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت عبد الستار الحلوجي / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت مصطفى إبراهيم فهمي
التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت . محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت . رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت . عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت إبراهيم الدسوقى شتا
الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى ثرباتس	ت محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت . عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت فورية العشماوى
مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت سرى محمد محمد عدد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت إدوار الخراط
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت إبراهيم قنديل
مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت إبراهيم فتحى
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت عز الدين الكتانى الإدريسى
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت رشيد بنحدو
قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت محمد بنيس
أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت عبد الغفار مكاوى
مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت عبد العزيز شبيل
الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت . د. أشرف على دعدور
صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر		ت محمد عبد الله الجعيدى

(تحت الطبع)

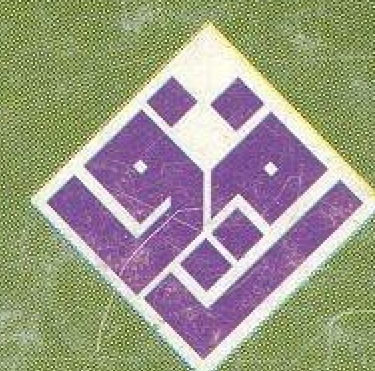
المختار من نقد ت . س . إليوت
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
حروب المياه
الأدب المقارن
راية التمرد
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى
الفجر الكاذب
الشعر الأمريكي المعاصر
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
الشرق يصعد ثانية
الجانب الديني للفلسفة
الولاية
ثقافة العولمة
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
حيث تلتقي الأنهار
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس
المدارس الجمالية الكبرى
التحليل الموسيقي
الإسكندرية تاريخ ودليل
مختارات من الشعر اليونانى الحديث

بارسيفال
اثنتا عشرة مسرحية يونانية
مصر القديمة التاريخ الاجتماعى
الخوف من المرايا
النساء فى العالم النامى
المرأة و الجريمة
غرفة تخص المرء وحده
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل
عدالة الهنود
چان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية
غرام الفراعنة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
صاحبة اللوكاندة
مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع
الاحتجاج الهادئ
المرأة والجنوسة فى الإسلام

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٠٣٩ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 034 - 3)

Mansur-1 Hallac
Salih Zaki Aktay

تعتبر أعمال المبدع صالح زكي أقطاي امتداداً فكرياً للتراث الإسلامي والحضاري، والفكري للكُتّاب المبدعين الذين نشأوا في مضمار، أو تحت مظلة الغطاء الحضاري للحضارة الإسلامية المشرقة في تركيا، رغم العلمانية التي حاولت أن تفرض سطوتها على المناخ الثقافي التركي، طوال ما يزيد عن سبعين سنة خلت.

وتأتي مسرحية «منصور الحلاج» التي تعتبر مأساة في خمسة فصول، على رأس قائمة أعمال الشاعر التركي، صالح زكي أقطاي المسرحية، أبدع فيها، ومزج مزجاً جميلاً بين النثر والشعر، كما طاف بنا - في ثنايا المسرحية - بين ربوع عالم التصوف، مستغرقاً في الفكر تارة، ومبسطاً لمبادئ التصوف تارة أخرى. حيناً ينتصر للشريعة، وأحياناً يطوف بنا في عوالم الفكر الصوفي دون استغراق في التعقيد؛ مما جعل المسرحية متعة فكرية، وتحفة أدبية، وإبداعاً مسرحياً، شاهدته الأوساط الأدبية والفكرية خلال الخمسينيات من هذا القرن؛ حيث طبعت هذه المسرحية سنة ١٩٤٤م.